أثر العوامل البشرية فى ضياع التراث العربى الإسلامى

د. عابد سليمان المشوخى(*)

تمهيد:

تعرّض التراث الإسلامى المخطوط - عبر قرون مضت - ولم يزل، لعوامل بشرية عدة أدت إلى ضياع الكثير منه، وكان من أهم هذه العوامل:

- الغزو التترى والغزو الصليبى
- الحروب والفتن الداخلية.
- المنازعات المذهبية بين الفرق الإسلامية.
- السلوك الشخصى لبعض العلماء.

بالإضافة إلى السرقة والجهل والتعصب والإهمال وعدم أمانة بعض المشرفين على المكتبات وغير ذلك من العوامل البشرية الأخرى التى سوف يتناولها الباحث فى سياق هذه الدراسة.

ومن الدراسات التى تناولت بعض أطراف الموضوع ناصر الحزيمى فى كتابه «حرق الكتب فى التراث العربى»، وفيه جمع المؤلف بعض حوادث وأخبار إتلاف الكتب فى التراث العربى وقصره على نوعين فقط من الإتلاف؛ الأول: إتلاف السلطة للكتاب، والثانى: الإتلاف الشخصى للكتب. ولم يتناول الباحث فى كتابه الأسباب البشرية الأخرى.

والدراسة الثانية التى يمكن أن نشير إليها فى هذا المجال هى بعنوان: «خزائن الكتب القديمة فى العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة» لكوركيس عواد الذى أشار فى كتابه هذا إلى بعض العوامل البشرية التى أدت إلى ضياع الكثير من التراث منها: حرق الكتب، وإغراقها ودفنها وغسلها.

كما تطرق أستاذنا الدكتور يحيى محمود ساعاتى فى الفصل السادس من كتابه

(*) أستاذ مشارك، قسم علوم المكتبات والمعلومات، كلية الآداب - جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

«الوقف وبنية المكتبة العربية» لمصائر الكتب والمكتبات الوقفية؛ حيث تحدث عن الفتن والقلاقل والتغيرات السياسية وأثرها فى ضياع كتب التراث، وعن استغلال الكتب الموقوفة ونهبها من قبل بعض العلماء، كما تحدث عن تفريط المشرفين على المكتبات وسوء إدارتهم.

وفى دراسة أخرى بعنوان: «الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى» تحدث شعبان خليفة عن مصائر الكتب الإسلامية وذكر الحروب والغزو الخارجى، والحروب والفتن الداخلية، واضطهاد المذاهب والمؤلفين، ودفن وغسل وحرق الكتب، وإتلاف كتب الغير لأسباب غير مفهومة، واستخدام المخطوطات فى تجليد مخطوطات جديدة، وسرقة المخطوطات ونهبها وتهريبها للخارج.

كما عرض لموضوع العوامل البشرية أستاذنا الدكتور محمد ماهر حمادة ـ رحمه الله ـ فى كتابه «المكتبات فى الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها» حيث تحدث عن مصير المكتبات الإسلامية.

وقد استفاد الباحث من هذه الدراسات وغيرها من المقالات بالإضافة إلى المراجع التراثية ككتب التاريخ والسير وكتب التراجم التى تحدثت عن حياة العلماء وسيرهم، وأخبارهم، والتى لم تخل من قيام البعض منهم بحرق كتبه أو غسلها أو دفنها أو إتلافها بطريقةٍ أو بأخرى.

المبحث الأول

السلوك الشخصى

أولاً - سلوك العلماء:

ذكر لنا المصادر التاريخية، وكتب التراجم جملة من أخبار بعض العلماء الذين تخلصوا من كتبهم وأتلفوها بوسائل عدة، كحرقها عمدًا مع سبق الإصرار، أو غسلها بالماء، أو دفنها فى باطن الأرض، أو تطييرها فى الهواء، أو القيام بتمزيقها ورميها فى الهواء، أو تركها فى الصحراء، أو إلقائها فى الأنهار أو الآبار أو البحار، أو إعدامها والتخلص منها بطريقة أو بالأخرى.

ولعل مثل هذه الأفعال لها ما يسوِّغها فى نظر الكثير منهم؛ فمنهم من علَّل ذلك بعدم اهتمام الناس بمؤلفاتهم، ومنهم من أعدمها وأتلفها خوفًا من عقاب الله له، ومنهم من أعدم كتبه خوفًا من عقاب الحكام، إلى غير ذلك من الأسباب التى كانوا يتذرعون بها.

وقد يلجأ بعضهم إلى حرق كتبه بسبب الإحباط واليأس من جهة، أو نتيجة اختلاط عقله من جهة أخرى، ومنهم من قام بإحراق كتبه بسبب تنسكه إلى غير ذلك من الأسباب.

وحول هذاالسلوك الغريب من قبل بعض العلماء يقول شعبان خليفة: التبريرات فى ذلك شتى فمنهم من يلجأ إلى ذلك ضنًا بكتبه أن يستفيد منها غيره من بعده؛ ومنهم من يخشى أن تقع كتبه فى أيدى من يسيئون استخدامها والإساءة إلى العلم الموجود فيها ولا يقدرونه حق قدره، ومنهم من يدرك فى نهاية حياته أنه قد تلهى بالكتب عن ذكر الله، ومنهم من يمر بضائقه نفسية ويتوهم أن الكتب هى سبب البلبلة الفكرية التى هو عليها[1].

وقد تحدث أيضًا ناصر الحزيمى عن أسباب حرق الكتب فى التراث العربى وذكر منها ستة هى: أسباب شرعية، وعلمية، وسياسية، واجتماعية، وقبلية، ونفسية وتعصبية[2].

---

(١) شعبان خليفة: الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ص ٢٥٢.

(٢) ناصر الحزيمى، حرق الكتب فى التراث العربى. ألمانيا: دار الجمل، ٢٠٠٣م.

وفى دراسة بعنوان «علماء احترقت كتبهم أو دُفنت أو غرقت أو مُحيت» لخص الباحث أسباب إحراق العلماء كتبهم فى عشر نقاط هى:

١ - خشية أن تقع كتبهم فى يد من لا يفهمها.
٢ - خشية أن تقع كتبهم فى يد من لا يعرف قدرها.
٣ - خشية أن تقع كتبهم فى يد من يُغيِّر فيها بالزيادة أو النقص.
٤ - التصوف والزهد والتفرغ للعبادة.
٥ - لئلا يتكل عليها الطلاب فلا يحفظوا ما فيها من علم.
٦ - لئلا تُروى عنهم بالوجادة ممن لم يسمعها من المؤلف.
٧ - عدم حاجته إليها؛ لحفظه لها، ولنقل طلابه ما فيها.
٨ - التخلص من الكتب التى تحوى ضلالات كالزندقة والسحر والتنجيم.
٩ - الرجوع عن بعض المؤلفات التى يرى مؤلفها عدم الخوض فيها، وتوبته منها.
١٠ - صغر سن بعضهم وتجعله إتلاف كتبه وندمه بعد ذلك[١].

وأيًا كانت المسوَّغات فمما لا شك فيه أن مثل هذا الصنيع، ومثل هذه العادات أضاعت علينا ثروة كثيرة من التراث الفكرى المخطوط فى مختلف فنون المعرفة.

وهذه بعض الأمثلة التوضيحية التى ذكرتها بعض المصادر التاريخية وكتب التراجم حول لجوء بعض العلماء لإتلاف كتبهم والتخلص منها.

١ - الحرق المتعمد للكتب:

إن ظاهرة حرق الكتب بصفة متعمدة بدأت فى العالم العربى والإسلامى منذ أواخر القرن الهجرى الأول، ومن الأمثلة على ذلك:

عروة بن الزبير (المتوفى سنة ٩٤هـ) الذى حرق كتبًا له فيها فقه سنة ٦٣ هجرية. ثم قال: لوددت أنى كنت فديتها بأهلى ومالى[٢].

والحسن البصرى (المتوفى سنة ١١٠ هـ)، إمام التابعين فى زمانه، روى ابن سعد فى طبقاته عن موسى بن إسماعيل قال: حدثنا سهل بن الحصين الباهلى قال: بعثت إلى عبدالله بن الحسن البصرى: ابعث إلىَّ بكتب أبيك فبعث إلىَّ أنه لما ثقل قال لى:

---

(١) أحمد بن عبد الله الباتلى: علماء احترقت كتبهم أو دفنت أو غرقت أو محيت. الرياض: دار طويق للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٧ .

(٢) الذهبى، محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٦٨هـ، ٤: ٣٢ .

أجمعها لى، فجمعتها له وما أدرى ما يصنع بها، فأتيت بها فقال للخادم: اسجرى التنور ثم أمر فأحرقت غير صحيفة واحدة، فبعث بها إلىَّ، وأخبرنى أنه كان يقول: ارو ما فى هذه الصحيفة، ثم لقيته بعد، فأخبرنى به[١].

أما أبو عمرو بن العلاء بن عمار المازنى (المتوفى سنة ١٥٤هـ)، أحد القراء السبعة المشهورين، وإمام أهل البصرة فى القراءات والنحو واللغة، فقد قام بإحراق دفاتره التى ملأت بيته إلى السقف بسبب تنسكه[٢]. وذكر ياقوت قول أبى سليمان الدارانى (المتوفى سنة ٢١٥هـ)، أنه «جمع كتبه فى تنور وسجرها بالنار، ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك»[٣].

وأوصى محمد بن عمر، أبو بكر الجعابى الحافظ (المتوفى سنة ٣٥٥هـ)، بأن تحرق كتبه بعد موته، فأحرقت[٤]. قال الأزهرى: إن ابن الجعابى لما مات أوصى بأن تحرق كتبه فأحرقت وكان فيها كتب للناس. قال فحدثنى أبو الحسين بن البواب أنه كان له عنده مائة وخمسون جزءًا فذهبت فى جملة ما أحرق. وروى عن الدارقطنى قوله: أخبرت بعلة الجعابى فقمت إليه فرأيته يحرق كتبه فأقمت عنده حتى ما بقى منه شىء[٥].

ويعجب المرء عندما يقرأ وصية أحد العلماء لولده بحرق كتبه؛ فهذا أبو سعيد السيرافى، (المتوفى سنة ٣٨٥هـ)، والذى يعد من كبار العلماء، يوصى ولده محمد بقوله: «قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تخونك، فاجعلها طعمة للنار»[٦].

وقد يقوم أحد العلماء بإحراق كتبه نتيجة الوسوسة، فقد ذكر ياقوت الحموى أن إسماعيل بن حماد الجوهرى (المتوفى سنة ٣٩٨ هـ) أحد علماء اللغة وصاحب كتاب (تاج اللغة وصحاح العربية) عرضت له فى آخر حياته وسوسة قهرية فحرق كتبه كلها، ثم صعد على سطح الجامع بنيسابور، فقال: أيها الناس، إنى قد عملت فى الدنيا شيئًا

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء، (بيروت: مؤسسة الرسالة ,١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ٤:٥٨٤.
(٢) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ٦ : ٤٠٨ .
(٣) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، (بيروت: دار إحياء التراث، د ت ، ٢٢ : ١٥ .
(٤) الذهبى، ميزان الاعتدال فى نقد الرجال؛ تحقيق على محمد البجاوى، بيروت: دار المعرفة، د. ت، ٥: ١١٧ .
(٥) الخطيب البغدادى، أحمد بن على، تاريخ بغداد. بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت، ٣: ٣١ .
(٦) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ١٥: ٢١ . ٢٢ .

لم أسبق إليه (يقصد مجمعه الصحاح) وزعم أنه يطير ، ثم قفز من أعلى الجامع فمات[١].

وقد أحرق أبو حيان (المتوفى نحو سنة ٤٠٠ هـ) كتبه النفيسة، وكتب لصديق له، مفسرًا ذلك بقوله: إن العلم حاطك الله يراد للعمل كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم، كان العمل كلا[٢] على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلا وأورث ذلا ـ علمك الله الخير ـ أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سرًا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طلبًا، على أنى جمعت أكثرها للناس ولطلب المنالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمدة الجاه عندهم، فحُرمت ذلك كله وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة علىَّ لا لى[٣].

وهكذا فسر لنا أبوحيان التوحيدى سبب إقدامه على حرق كتبه النفيسة بالنار. وغسلها بالماء فى آخر عمره لقلة جدواها (من وجهة نظره) وضنًا بها على من لا يعرف مقدارها[٤]. وقد عاتبه على ذلك القاضى أبو سهل على بن محمد الذى عذله على صنيعه، وعرفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه، فأجابه التوحيدى بأنه ما انبرى لهذا الصنيع، ولا اجترأ عليه، وحتى استخار الله عز وجل فيه أيامًا ولياليى، وحتى أوحى إليه فى المنام، بما بعث راقد العزم وأجدّ فاتر النية وأحيا ميت الرأى وحث على تنفيذ ما وقع فى الروع، وتريع فى الخاطر.. ثم قال: «وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب؟.. وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليها؟.. وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرها؟.. هيهات، الرحيل والله قريب، والثواء قليل، والمضجع مقضى، والمقام ممضى، والطريق مخوف، والمعين ضعيف، والاغترار غالب، والله من وراء هذا كله طالب[٥].

ومن العلماء المشهورين الذين أحرقوا كتبهم: أبو الفرج ابن الجوزى (المتوفى سنة ٥١٠ هـ)، فقد كان يملك كتبًا كثيرة أحرقت بإشارة منه، وبعضها أخذها ولده وباعها بالمزاد[٦].

(١) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ٦: ١٥٧ .
(٢) الكّل: الثقيل الذى لا خير فيه.
(٣) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ١٥: ١٦ ـ ٢٦ .
(٤) السيوطى: عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد: بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، بيروت : دار الفكر ، ١٩٧٩م ، ٢ : ١٩٠ .
(٥) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ١٥: ١٦ ـ ١٧ .
(٦) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ٢١: ٣٧٧ .

ومنهم من قام بإحراق كتبه خوفًا من الاستيلاء عليها؛ فقد ذكر أن الحسين بن الحسين بن عبدالله بن الحسين، أبا الحكم الكلبى، ابن حسون (المتوفى سنة ٥٤٧ هـ)، قاض من جبابرة الأمراء بالأندلس أيام ملوك الطوائف، نشأ فى أسرة وجيهة بمقالة، وتولى قضاءها سنة ٥٣٨هـ، قام بالإمارة والقضاء، وكان فى جواره بعض المرابطين فواصلوا الغارات عليه. اتفق عليه أهل البلد مع أحد خدامه ويعرف باللوشى، فثاروا عليه، وقتلوا أخًا له كان قائد جيشه، وضاع رشده فقتل بعض بناته غيرة عليهن من السبى، وأطلق النار فى كتبه فأحرقها[١].

وممن أحرق كتبه تغرى برمش بن يوسف (المتوفى سنة ٨٢٠هـ[٢]. وكذلك أوصى جعفر البرساوى (المتوفى نحو ٩٥٠هـ)، بإحراق كتاب له ألفه فى الهزل سماه «دافع الغموم» حيث ندم على تأليفه، ولزم أن يشتريه ممن لقيه عنده ويحرقه بالنار[٣].

٢ - إغراق الكتب فى البحار والأنهار:

ذكرت لنا بعض المصادر التاريخية لجوء بعض العلماء إلى رمى مصنفاتهم وكتبهم فى البحر والأنهار وذلك للتخلص منها.

ومن أمثلة هؤلاء: داود بن نصير الطائى (المتوفى سنة ١٦٥ هجرية)، وكنا من خيار عباد الله زهدًا وفقهًا وعبادة، ويقال له تاج الأمة، كانت له مكتبة خاصة ضمت العديد من الكتب الفقهية واللغوية والأدبية، غير أنه عمد إلى تغريقها فى مياه نهر الفرات، وقال يناجيها: «نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول، عناء وذهول، وبلاء وخمول»[٤]. وقيل: إنه دفنها فى الأرض وفى ذلك ضياع لثروة فكرية كبيرة.

وذكر السلمى نقلاً عن محمد بن عبدالله الطبرى قوله: إنه سمع يوسف بن الحسين يقول: طلب أحمد بن أبى الحوارى (المتوفى سنة ٢٤٠ هـ) العلم ثلاثين سنة، ثم حمل كُتُبه كلَّها إلى البحر، فغرَّقها، وقال: يا علْم، لم أفْعَلْ بك هذا استخفافًا[٥].

وجاء فى ترجمة ابن فروخ الحافظ، مجاهد بن موسى الخوازمى (المتوفى سنة

(١) خير الدين الزركلى: الأعلام، ط ٥ . بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م، ٢ : ٢٣٥ .

(٢) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى؛ تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م)، ٤: ٥٧ .

(٣) الغزى: محمد بن محمد، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ط٢. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩م، ٢: ١٣٣ .

(٤) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ١٥: ٢١ . والذهبى: سير أعلام النبلاء، ٧: ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٥) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ١٢: ٨٨ .

٢٤٤هـ)، قول ابن الخطيب عنه: «قرأت فى كتاب عبيد الله بن جعفر: حدثنا أبو يعلى الطوسى، حدثنا محمد بن القاسم الأزدى، قال: قال لنا مجاهد بن موسى - وكان إذا حدث بالشىء رمى بأصله فى فى دجلة أو غسله - فجاء يومًا ومعه طبق، فقال: هذا قد بقى، وما أراكم ترونى بعدها، فحدث به، ورمى به، ثم مات بعد ذلك»[١].

وممن تخلص من مصنفاته فى النهر: أحمد بن محمد بن الخلال (المتوفى سنة ٣١١هـ)، فقد ذكر عنه أنه رمى بجملة من سماعاته القديمة فى نهر دجلة[٢].

وقد يأمر الأمير بقذف كتاب العالم الرخبارى فى النهر إذا ما شك فى صحة الأخبار التى يضمها كتابه. كما حدث لكتاب «الفصوص» الذى ألفه صاعد البغدادى، فحين شك فى صحته المنوصر بن أبى عامر أمير الأندلس (المتوفى سنة ٣٩٢هـ)، وتأكد لديه ذلك بعد اختبار أجراه له، قال له: أبعد الله مثلك، فما رأيت أكذب منك، وأمر بإخراجه، وأن يقذف كتاب «الفصوص» فى النهر، فقال فيه بعض الشعراء:

قد غاص فى النهر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغـــوص

فأجابه صاعد:

عـــاد إلى معدنـــه إنمـــا يوجد فى قعر البحار الفصوص[٣]

وجاء فى ترجمة أبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى، المعروف بالماوردى، (المتوفى سنة ٤٥٠هـ)، وكان من وجوه الفقهاء الشافعية وكبارهم، أنه جمع مصنفاته فى موضع، فلما دنت وفاته قال لشخص يثق فيه: الكتب التى فى المكان الفلانى كلها تصنيفى، وإنما لم أظهرها، لأنى لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يشبها كدر، فإن عاينت الموت ووقعت فى النزع فاجعل يدك فى يدى، فإن قبضت عليها وعصرتها، فاعلم أنه لم يُقبل منى شىء منها، فاعمد إلى كتب وألقها فى دجلة ليلاً، وإن بسطت يدى ولم أقبض على يدك، فاعلم أنها قُبلت وأنى قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة. قال ذلك الشخص: فلما قارب الموت وضعت يدى فى يده فبسطها ولم يقبض على يدى، فعلمت أنها علامة القبول، فأظهرت كتبه بعده[٤].

وبالرغم من أن هذه الكتب لم تتلف إلا أن النية كانت مبيتة فى ذهن هذا الفقية بإغراقها فى نهر دجلة.

(١) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ١١: ٤٩٥ .
(٢) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، ٥: ١٥٥ .
(٣) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ٤: ٢٦٦ .
(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ تحقيق إحس، ٣ : ٢٨٢-٢٨٣ .

وأغرب النكبات التى تثير الضحك ما فعلته زوجة الأمير ابن فاتك، (من أمراء القرن الخامس الهجرى)، فقد كان له مكتبة ضخمة يجلس فيها أكثر أوقاته ولا يفارقها، فدخلت الغيرة زوجته من الكتب، فلما توفى نهضت هى وجواريها إلى خزائن كتبه، وفى قلبها لوعة منها؛ لأنه كان يشتغل بها عنها، فجعلت تبكيه وتندبه، وفى أثناء ذلك ترمى وجواريها الكتب فى بركة ماء كبيرة فى وسط الدار[١].

وجاء فى ترجمة ابن العريف الصنهجاى المقرئ، (المتوفى سنة ٥٣٩هـ)، صاحب المقامات والإشارات أنه «ممن ضرب عليه الكمال رواق التعريف، فأشرقت بأضرابه البلاد، وشرقت به جماعة الحسَّاد، حتى سعوا به إلى سلطان عصره، وخوفوه من عاقبة أمره، لاشتماله القلوب عليه، وانضواء الغرباء إليه، فغرَّب إلى مراكش، ... فاستوحش، فغرَّق فى البحر جميع مؤلفاته، فلم يبق منها إلا ما كتب منها عنه[٢].

وفى ترجمة صفى الدين أبى السرور القاضى أحمد بن عمر المزجد الزبيدى (المتوفى سنة ٩٣٠هـ)، وهو ممن اشتغل بالفقه وأصوله والحديث وعلومه والحساب والفرائض وبرع فى علوم كثيرة وتميز بفقه الإمام الشافعى. قال حفيده أبو الفتح بن حسين المزجد عنه: «كان جدى ـ رحمه الله تعالى ـ شرح جامع المختصرات للنسائى فى ستة مجلدات، ثم لما رآه لم يستوف ما حواه الجامع المذكور من الجمع والخلاف وألقاه فى الماء فأعدمه والله المستعان»[٣].

وذكر المحبى أن عبدالله الكردى البغدادى ثم الدمشقى (المتوفى نحو ١٠٠٣هـ)، «اشتغل بالعلوم أولا وفاق أقرانه ثم غلب عليه الحال، ورمى كتبه فى الماء..»[٤].

وذكر أن محمد بن صالح الجيلانى (المتوفى سنة ١٠٨٨هـ)، ركب البحر يريد الحج، فانكسر المركب فنجا بنفسه وغرقت ثروته وكتبه[٥]. وجاء عن خزانة كتبه أنه عمد إلى تغريقها فى مياه نهر الفرات، وقيل: إنه دفنها فى الأرض.

٣ - تمزيق الكتب

ومن الطرق الأخرى التى لجأ إليها بعض العلماء للتخلص من مصنفاتهم وكتبهم القيام بتمزيقها وبعثرتها فى الهواء وممن قام بذلك سفيان الثورى (المتوفى سنة

(١) ابن أبى اصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. بيروت: دار الفكر، ١٩٥٦م ٢: ٩٩ .
(٢) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٢٠: ١١١. ١١٢ .
(٣) العيدروس، عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله، النور السافر عن أخبار القرن العاشر. د. م، د. ن، ص ١٢٧ .
(٤) المحبى، محمد أمين، خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر. بيروت: دار صادر، د. ت، ٢: ٨٥ .
(٥) خير الدين الزركلى، الأعلام، ٦: ١٦٣ .

١٦١هـ)، حيث أقدم على تمزيق ألف جزء وتطييرها فى الريح وقال: ليت يدى قطعت من ها هنا بل من ها هنا ولم أكتب حرفًا[١].

وقال الخطيب البغدادى: حدثنا أبو محمد الأنبارى، حدثنى أبو على الغنزى قال: امتحن عمر بن شبه (المتوفى سنة ٢٦٢هـ)، بسُرَّ مَنْ رأى بحضرتى فقال: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، فقالوا له فتقول من وقف فهو كافر. فقال: لا أكفر أحدًا، فقالوا له أنت كافر ومزقوا كتبه، فلزم بيته وحلف أن لا يحدّث شهرًا[٢].

٤ - إتلاف الكتب وإعدامها:

أدى الجفاء بين بعض العلماء إلى إتلاف الكتب، فقد ذكر أن الإمام الحافظ مسعود ابن أحمد بن مسعود بن زيد العراقى المصرى الحنبلى (المتوفى سنة ٧١هـ)، عمد إلى إعدام مسودة كتاب «الإمام لابن دقيق العيد» بعد أن كان أكمله، فلم يبق منه إلا ما كان بيض فى حياة مصنفه[٣].

ومن العلماء الذين قاموا بإتلاف كتبهم: عماد الدين التبرياج (المتوُى سنة ٨٥٥هـ)، كان رائع الخط حسن المحاضرة والمفاكهة، نظم ديوان شعر، ثم قام بإتلافه وهو حى يرزق ضنًا بكرامته وإعلاء لشأن الأدب على زعمه. ولما سئل عما حمله على إتلاف الديوان قال: «كان الشاعر قديمًا إذا نظم قصيدة ومدح بها أحدًا أجيز على قصيدته بمنحة سخية، أما أنا فأنظم القصيدة، وأرسل معها الخدم والعسل وغير ذلك لكى تحوز القبول، وقد أغنانى الله سبحانه عن الاستجداء فأريد قبل وفاتى أن أتصرف فى ديوانى، حرصًا على كرامتى، ولئلا يقال بعدى: ما أكثر ما سأل بقصائده[٤].

ومن أتلف كتبه: أبو ذر الحافظ، أحمد بن إبراهيم (المتوفى سنة ٨٨٤هـ)، يقول السخاوى عنه: «... تعانى فى ابتدائه فنون الأدب فبرع فيها وجمع فيها تصانيف نظمًا ونثرًا ثم أذهبها حسبما أخبرنى به عن آخرها، ومن ذلك: عروس الأفراح فيما يقال فى الراح، وعقد الدرر، والآل فيما يقال فى السلسال، وستر الحال فيما قبل فى الخال، والهلال المستنير فى العذار المستدير، والبدر إذا استتار فيما قيل فى العذار»[٥].

---

(١) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ١٥: ٢٢ .

(٢) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، ١١ : ٢٠٩ .

(٣) ابن حجر العسقلانى ، أحمد بن على، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، بيروت: دار الجيل، د ت، ٤: ٣٤٧ .

(٤) محمد راغب بن محمود الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٥: ٢٥٤ .

(٥) السخاوى، محمد بن عبدالرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: دار مكتبة الحياة، د. ت، ١: ١٩٨ .

وسعيد بن أحمد العدنى (المتوفى سنة ٨٨٧هـ)، قدم إلى عدن واستوطنها واقتنى كتبًا نفيسة، وكان ضنينًا بها، واستولى على عدة خزائن فأعدمها[١].

وأبو عبدالله شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر السخاوى (المتوفى سنة ٩٠٢هـ)، أمر بإحضار كتبه وإتلافها فأتلفت[٢].

٥ - غسل الكتب ومحوها:

ومن الأساليب الأخرى التى أدت إلى ضياع الكثير من كتب التراث العربى الإسلامى المخطوط قيام بعض العلماء بغسل مؤلفاتهم أو تآليف غيرهم، وقد يقوم بهذا العمل بعض النساخ وغيرهم من الوراقين وذلك بأن يضعوا الكتب أو أوراق المخطوطات فى الماء لمدة معينة من الزمن؛ مما يؤدى إلى تحلل الحبر، وطمس الكتابة وضياعها بهدف التخلص مما فيها من أقوال وآراء لايرغب صاحبها فى الإبقاء عليها أو الاحتفاظ بها متبرئًا ما كتب أوتائبًا إلى الله مما صنع، أو متلافيًا ما فرط منه، أو لدواع أخرى مختلفة.

وقد يلجأ البعض منهم إلى محو الكتابة باستخدام قطعة من القماش المبلولة لإزالة الكتابة، وكان (غسل الكتابة) يعبر عنه أحيانًا بلفظ (محو الكتابة).

ومن الأخبار الواردة فى غسل الكتب أو محوها، ما أورده الذهبى فى ترجمة الفقيه المرادى الكوفى (المتوفى سنة ٧٢هـ)، الذى طلب إحضار كتبه قبل وفاته فمحاها وقال: أخشى أن تضعوها على غير موضعها[٣].

ومن العلماء الذين أقدموا على غسل كتبهم: شعبة بن الحجاج (المتوفى سنة ١٦٠هـ)، قال سعد بن شعبة: أوصى أبى إذا مات أن أغسل كتبه فغسلتها، ويعلق الذهبى على مثل هذه الأفعال بقوله: وهذا قد فعله غير واحد بالغسل، وبالحرق، وبالدفن خوفًا من أن تقع فى يد إنسان وأن يزيد فيها أو يغيرها[٤].

وروى القاضى أبو على المحسن التنوخى (المتوفى سنة ٣٨٤هـ)، عن أبيه، فى معرض كلامه على المنجمين، وما قد يتأتى لهم من توقيعات وكشوف، قال: «هذا أبى، حول مولد نفس السنة التى مات فيها، فقال لنا: هى سنة قطع على مذهب المنجمين،

(١) السخاوى: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٣: ٢٥٤ .
(٢) العيدروس: عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله: النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ص ١٦ .
(٣) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ٤: ٤٠ - ٤٣ .
(٤) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ٧: ٢٠٢ .

وكتب بذلك إلى بغداد إلى أبى الحسن بن البهلول القاضى صهره ينعى نفسه إليه ويوصيه، فلما اعتل أدنى علة وقبل أن تتحكم علته، أخرج التحويل ونظر فيه طويلاً، وأنا حاضر، فبكى وأطبقه واستدعى كاتبه وأملى عليه وصيته التى مات عنها وأشهد فيها من يومه، فجاءه أبوالقاسم غلام زحل المنجم فأخذ يطيب نفسه ويورد عليه شكوكًا فقال: يا أبا القاسم، لست ممن يخفى هذا عليه فأنسبك إلى غلط، ولا أنا ممن يجوز عليه هذا فتستغفلنى، وجلس فوافقه على الموضع الذى خافه، ثم قال له أبى: دعنى من هذا، بيننا شك فى أنه إذا كان يوم الثلاثاء العصر لسبع بقين من الشهر فإنه ساعة قطع عندهم؟ فأمسك أبو القاسم واستحيا منه أن يقول نعم، فأمسك أبو القاسم غلام زحل لأنه كان خادمًا لأبى، وبكى أبى طويلاً، ثم قال: يا غلام، الطست! فجاءه به، فغسل التحويل وقطعه، وودع أبا القاسم توديع مفارق، فلما كان فى ذلك اليوم العصر بعينه مات كما قال[١]».

ومما ورد فى ترجمة على بن عيسى الربعى النحوى (المتوفى سنة ٤٢٠ هجرية)، وهو «أحد أئمة النحويين وحذاقهم الجيّدى النظر، الدقيقى الفهم والقياس، أخذ عن أبى سعيد السيرافى وهاجر إلى شيراز فأخذ عن أبى على الفارسى ولازمه عشرين سنة، فقال أبو على: ما بقى شىء تحتاج إليه، ولو سرت من الشرق إلى الغرب لم تجد أعرف منك بالنحو، وصنف تصانيف منها: شرح سيبويه إلا أنه غسله، وذاك أن أحد بنى رضوان التاجر نازعه فى مسألة فقام مغضبًا وأخذ شرح سيبويه وجعله فى إجَّانة[٢] وصب عليه الماء وغسله، وجعل يلطم به الحيطان، ويقول: لا أجعل أولاد البقالين نحاة[٣]».

ومن العلماء الذين غسلوا كتبهم: على بن طلحة بن كردان النحوى، صنف كتابًا كبيرًا فى إعراب القرآن يقارب خمسة عشر مجلدًا، ثم بدا له فيه، فغسله قبل موته سنة ٤٢٤ هجرية[٤].

وذكر ابن الجوزى أن محمد بن على بن المطلب (المتوفى سنة ٤٧٨هـ)، «قال شعرًا كثيرًا، إلا أنه كثير الهجو، ثم مال عن ذلك وأكثر الصوم والصلاة والصدقة، وروى

(١) التنوخى، المحسن بن على: نشوار المحاضرة . القاهرة : طبعة مرجليوت، ١٩٢١م، ١: ٢٦٩ .
(٢) الإجَّانة: إناء تغسل فيه الثياب.
(٣) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ١٤: ٧٩ .
(٤) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ٧: ١٣ .

الحديث عن ابن بشران وابن شاذان وغيرهما، وغسل مسودات شعره، وأحرق بعضها بالنار[١]».

وذكر أن الشاعر المشهور عاصم بن الحسن الكرخى (المتوفى سنة ٤٨٣هـ)، مرض فى أواخر عمره فغسل ديوان شعره[٢].

وجاء فى ترجمة شجاع بن فارس، الذهلى السهروردى (المتوفى سنة ٥٠٧هـ)، أنه: «.... ذيل على تاريخ الخطيب ثم غسله قبل موته»[٣].

وذكر اليافعى أن أبا بكر السمعانى التميمى المروزى (المتوفى سنة ٥١٠هـ)، قام بغسل تصانيفه وشعره قبل وفاته[٤].

ومن العلماء الذين قاموا بغسل كتبهم: المبارك بن المبارك أبى طالب الكرخى ابن أبى البركات الفقيه الشافعى (المتوفى سنة ٥٨٥هـ)، يقول ياقوت الحموى: إنه كان أوحد زمانه فى حسن الخط على طريقه على بن هلال بن البواب. سمعت جماعة يحكون أنه لم يكتب أحد قبله ولا بعده مثله فى قلم الثلث، حتى رأيت من يغالى فيه، فيقول: إنه كتب خيرًا من ابن البواب. وكان ضنينًا بخطه جدًا، فلذلك قلَّ وجوده، وكان إذا اجتمع عنده شىء من تجويداته يستدعى طستًا ويغسله، فأما إذا استفتى فإنه كان يكسر قلمه ويجهد فى تغيير قلمه[٥]».

ومما ورد فى معجم الأدباء أيضا أن ياقوتا سأل على بن الحسن المعروف بشميم الحلى النحوى اللغوى الشاعر، (المتوفى سنة ٦٠١هـ)، كيف أنه لم يصنف مقامات يدحض بها مقامات الحريرى، فقال له: «يابنى، اعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادى على الباطل. عملت مقامات مرتين، فلم ترضنى، فغسلتها، وما أعلم أن الله خلقنى إلا لأظهر فضل ابن الحريرى...[٦]».

ومما نقله ياقوت فى ترجمة ابن الدهان الضرير الواسطى المعروف بالوجيه، (المتوفى سنة ٦١٢هـ)، قوله: «وحدثنى محب الدين محمد بن النجار قال: حضر الوجيه

(١) ابن الجوزى، عبد الرحمن بن على بن محمد: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم؛ تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ٩: ٢٤ .

(٢) اليافعى، عبد الله بن أسعد بن على: مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان - ط ٢ - بيروت: مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، ١٣٩٠هـ، ٣: ١٣٤ .

(٣) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٩: ٣٥٥ .

(٤) اليافعى، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ٣: ٢٩ .

(٥) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ٦: ٢٣٠ .

(٦) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ٥: ١٣٢ .

النحوى بدار الكتب التى برباط المأمونية، وخازنها يومئذ أبو المعالى أحمد بن هبة الله، فجرى حديث المعرى، قدمه الخازن وقال: كان عندى فى الخزانة كتاب من تصانيفه ففسلته، فقال له الوجيه: وأى شىء كان هذا الكتاب؟ قال: كان كتاب نقض القرآن، فقال له: أخطأت فى غسله. فعجب الجماعة منه، وتغامزوا عليه، واستشاط ابن هبة الله وقال له: مثلك ينهى عن مثل هذا؟ قال نعم! لايخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن أو خيرًا منه أو دونه، فإن كان مثله أو خيرًا منه، وحاش الله أن يكون ذلك، فلا يجب أن يفرط فى مثله، وإن كان دونه، وذلك ما لاشك فيه، فتركه معجزة للقرآن فلايجب التفريط فيه فاستحسن الجماعة قوله، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت[١].

وذكر العسقلانى عن على بن الحسن بن عبدالله ابن الجابى، (المتوفى سنة ٧٠١هـ)،أنه «كان قد أغرى بالكيمياء، وحصل فيها كتبًا كثيرة جدًا، وكان يزعم أنها صحت معه. قال ابن الجزرى: كان صاحبى، وكان يعرف الكيمياء معرفة تامة، ولما مات، توجه الشيه تقى الدين ابن تيمية، فاشترى منها جملة وغسلها فى الحال، وقال: «هذه الكتب كان الناس يضلون بها وتضيع أموالهم، فافتديتهم بما بذلته فى ثمنها[٢]».

وفى إيراد مثل هذه النصوص، ما يميط اللثام عن أغلب الدواعى لغسل الكتب، وفيما نقلناه بعض تلك الدعاوى، وهناك غيرها من الأسباب. من ذلك ما كتبه كمال الدين الأدفوى فى ترجمة محمد بن معتوق الشيبانى النصيبى الشاعر، (المتوفى سنة ٧٠٧ هجرية)، قال: «وحضر مرة الشيخ بهاء الدين القفطى من إسنا، فتوجه النصيبى إليه، وعرفوا الشيخ عنه إنه فاضل، فصار يسأله عن لغة، فيذكر شيئا من عنده ويستشهد عليه بشعره، فيكتب الشيخ ما يقوله، إلى أن اجتمعت عنده كراريس، فلما قصد التوجه جاء إليه وقال: ياسيدنا، لاتعتمد على هذه الكراريس، فإنى ارتجلتها فشق على الشيخ وغسلها[٣].

وقد ذكر ابن حجر العسقلانى أن صدر الدين بن الوكيل (المتوفى سنة ٧١٦هـ)، كان «إذا مرض غسل مانظمه من الشعر»[٤].

---

(١) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ٦: ٢٣٥ .

(٢) ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، ٣ : ٣٩ .

(٣) الأدفوى، الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة، (القاهرة: ١٩١٤م)، ص ٣٥٤ .

(٤) ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، ٤ : ١٢٠ .

وربما أقدم ابن الوكيل على غسل شعره، لإحساسه بأن شعره يتنافى مع الإسلام، ويبعده عن رضا الله - عز وجل - عنه.

وجاء فى ترجمة ابن أبى السعود، أحمد بن إسماعيل (المتوفى سنة ٨٧٠ هـ) قول السخاوى: «.... وأعرض بآخرة عن تعاطى الشعر بأن غسل جميع ما كان من نظم ونثر بحيث لم يتأخر منه إلا ما كان برز قبل، ويقال: إن ذلك لم يكن عن قصد وإنما اتفق أنه جمع أوراق نظمه ثم أفرد منها ما لا يرتضيه ليغسله ففاجأه بعض أصحابه فقام لتلقيه، وأمر بعض من كان عنده بغسل الأوراق التى عن يمين مجلسه فاشتبه الأمر عليه بحيث بحيث غسل ما كان يجب بقاؤه فلم عاد سقط فى يده وغسل الباقى....»[١].

وقد يقدم بعض العلماء على محو ما لديه من على صفحات الكتب المصنوعة من الرقوق والجلود بغية نسخ مؤلف جديد أوتدوين أمور أخرى، وذلك بسبب قلة إنتاج القراطيس وارتفاع كلفتها. خصوصًا فى القرن الهجرى الأول والنصف الأول من القرن الثانى الهجرى.

٦ - دفن الكتب:

من الظواهر الغريبة التى حدثت فى التاريخ العربى الإسلامى قيام بعض المؤلفين والعلماء بدفن كتبهم، أو الزج بها بإحدى المغارات، وهذا الفعل يعد من المصائب التى ابتلى بها التراث العربى الإسلامى المخطوط، نتيجة للتعصب ، أو قلة التدبير، فكم من المخطوطات فقدناها نتيجة لهذا التصرف الذى ندد به بعض كبار العلماء؛ حيث أنكروا دفن الكتب، ومن بين هؤاء العلماء: ابن الجوزى حيث قال[٢]: «ولقد ذاكرت بعض مشايخنا، ما يروى عن جماعة من السادات، أنهم دفنوا كتبهم، فقلت له: ما وجه هذا؟ فقال: أحسن ما نقول أن نسكت! يشير إلى أن هذا جهل من فاعله، وتأولت أنا لهم فقلت: لعل ما دفنوا من كتبهم، فيها شىء من الرأى، فما رأوا أن يعمل الناس به، وقد روينا عن أحمد بن أبى الحوارى: أنه أخذ كتبه فرمى بها فى البحر وقال: نعم الدليل كنت، ولا حاجة لنا إلى الدليل بعد الوصول إلى المدلول، وهذا إذا أحسنا به الظن. قلنا: كان فيها من كلامهم مالا يرتضيه، فأما إذا كانت علومًا صحيحة، كان هذا من أفحش الإضاعة. وأنا وإن تأولت لهم هذا، فهو تأويل صحيح فى حق العلماء منهم، لأنا قد

(١) السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١: ٢٣١ .

(٢) ابن الجوزى، صيد الخاطر؛ تحقيق ناجى الطنطاوى، ط ٥، جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص٥٨ .

روينا عن سفيان الثورى: أنه قد أوصى بدفن كتبه، وكان ندم على أشياء كتبها عن قوم، وقال: حملنى شهوة الحديث. وهذا لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين. فكأنه لما عسر عليه التمييز، أوصى بدفن الكل. وكذلك من كان له رأى من كلامه ثم رجع عنه، جاز أن يدفن الكتب التى فيها ذلك. فهذا وجه التأويل للعلماء».

ويواصل ابن الجوزى حديثه بالقول:

«فأما المتزهدون الذين رأوا صورة فعل العلماء ودفنوا كتبًا صالحة لئلا تشغلهم عن التعبد، فإنه جهل منهم، لأنهم شرعوا فى إطفاء مصباح يضىء لهم، من الإقدام على تضييع ما لا يحل. ومن جملة من عمل بواقعة دفن كتب العلم، يوسف بن أسباط ثم لم يصبر عن التحديث، فخلط. فعُدَّ من الضعفاء. أنبأنا عبدالوهاب بن المبارك، قال: أخبرنا محمد بن المظفر الشامى، قال: أخبرنا أحمد بن محمد العتيقى، قال حدثنا يوسف بن خالد الخلال، قال: سمعت شعيب بن حرب يقول: قلت ليوسف بن أسباط: كيف صنعت بكتبك؟ قال: جئت إلى الجزيرة، فلما نضب الماء دفنتها حتى جاء الماء عليها، فذهبت. قلت: ما حملك على ذلك؟ قال: أردت أن يكون الهم همًا واحدًا. قال العقيلى: وحدثنى آدم، قال: سمعت البخارى قال: قال صدقة: دفن يوسف بن أسباط كتبه، وكان بعد يغلب عليه، فلا يجىء كما ينبغى. وقال المؤلف: قلت: الظاهر أن هذه كتب علم ينفع، ولكن قلة العلم أوجبت هذا التفريط الذى قصد به الخير، وهو شر. فلو كانت كتبه من جنس كتب الثورى، فإن فيها عن ضعفاء ولم يصح له التمييز، قرب الحال إنما تعليله يجمع الهم، هو دليل على أنها ليست كذلك، فنظر إلى قلة العلم، ماذا تؤثر مع أهل الخير»[1].

ويضيف ابن الجوزى قائلا: «فى الناس من غلب عليه قصر الأمل وذكر الآخرة، حتى دفن كتب العلم، وهذا الفعل عندى من أعظم الخطأ، وإن كان منقولاً عن جماعة من الكبار، ولقد ذكرت هذا لبعض مشايخنا فقال: أخطأوا كلهم. وقد تأولت لبعضهم بأنه كان فيها أحاديث عن قوم ضعفاء ولم يميزوها، كما روى عن سفيان الثورى فى دفن كتبه، أو كان فيها شىء من الرأى فلم يحبوا أن يؤخذ عنهم، فكان من جنس تحريق عثمان - رضي الله عنه - للمصحاف، لئلا يؤخذ بشىء مما فيها من المجتمع على غيره. وهذا التأويل يصح فى حق علمائهم»[2].

(١) ابن الجوزى، صيد الخاطر، ص ٥٩ .
(٢) ابن الجوزى، صيد الخاطر، ص ١٦٤ .

وهذا أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤هـ)، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر، وورع معروف، دفن كتبه فى بطن، فلم يوجد لها أثر[١].

وقد ذكر يحيى بن معين عن عبدالله بن نمير قال: كان على بن سليمان (من علماء القرن الثانى الهجرى)، يجيئنى فيسألنى: كيف كذا، وكان قد دفن كتبه[٢].

وممن دفن خزانة كتبه: على بن مسهر القرشى (المتوفى سنة ١٨٩هـ)، كان ثقة، جمع الفقه والحديث، وولى قضاء الموصل، ثم قضاء أرمينية ولما قدم أرمينية اشتكى عينه، فقال قاض كان قبله للكحال أكحله بما يدهب عينيه ثم أعطيك مالا، فكحله فذهبت عينه، فرجع إلى الكوفة أعمى، وعرف فى عصره من المحدثين الثقاة. دفن خزانة كتبه وهو من متقنى أهل الكوفة[٣].

وهناك أيضًا خزانة عطاء بن مسلم الخفاف (المتوفى سنة ١٨٩ هـ وقيل ١٩٠هـ)، وكان من أهل الكوفة، وكان قد نزل حلب فى فترة من حياته، وورد عنه أنه دفن خزانة كتبه قبل وفاته[٤].

وكان لأبى كريب محمد بن علاد الهمدانى (المتوفى سنة ٢٤٨هـ)، خزانة كتب أوصى قبل وفاته أن تدفن معه فدفنت[٥].

وقد قام مؤمل أبو عبدالرحمن بن إسماعيل العدوى، المتوفى سنة ٣٠٦هـ بدفن كتبه[٦].

وأوصى ابن الحذاء القرطبى، محمد بن يحيى بن أحمد (المتوفى سنة ٤١٦هـ)، أن يدفن كتابه «الإنباه عن أسماء الله» على صدره[٧].

وجاء فى ترجمة الحافى، بشر بن الحارث بن عبدالرحمن، ابن عطاء أبو نصر

(١) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ١٥: ٢١ .

(٢) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٨: ٤٢٨ .

(٣) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٨: ٤٢٦ ـ ٤٢٨ .

(٤) الرازى ، عبدالرحمن بن محمد، الجرح والتعديل. حيدر أباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧١-١٣٧٣هـ/١٩٥٢ ـ ١٩٥٣م)، ٦ : ٣٣٦.

(٥) ابن طاهر القيسرانى، تذكرة الحفاظ؛ تحقيق حمدى السلفى الرياض: دار الصميعى، ١٤١٥هـ، ٢ : ٤٩٧.

(٦) ابن حجر العسقلانى، تهذيب التهذيب، حيدر أباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧هـ، ١٠: ٣٨٠ .

(٧) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ١٧: ٤٤٤ .

المرزوى (المتوفى سنة ٦٦٧هـ)، قول الخطيب عنه: «كان كثير الحديث، إلا أنه لم ينصب نفسه للرواية، وكان يكرهها ودفن كتبه لأجل ذلك»[١].

وذكر ابن حجر أن ابن أبى حجلة، أحمد بن يحيى ابن أبى بكر التلمسانى (المتوفى سنة ٧٧٦هـ) أمر عند موته أن يوضع مصنفه الذى عارض فيه قصائد ابن الفارض فى نعشه، بل يدفن فى قبره [٢].

ومن العلماء من ترك كتبه فى البرية؛ فقد ذكر السخاوى أن أبا بكر بن محمد بن شادى الحصنى الشافعى (المتوفى سنة ٨٨١هـ)، عاد من طريق العراق، وأخذ جميع ما معه من كتب وغيرها فألقيت الكتب بالبرية لعدم التفاتهم إليها ولكنه لم يجد محمولها فتركها ونجا بنفسه[٣].

ثانيًا - جهل الورثة بعد وفاة العلماء:

من الأسباب التى أدت إلى تشتت المخطوطات وضياعها وفاة العلماء وأصحاب المكتبات الخاصة، حيث تئول ممتلكاتهم من الكتب عن طريق الوراثة إلى أبناء مالكيها أو غيرهم من الورثة، فيؤدى ذلك إلى بعثرتها من جهة وعدم العناية بها من جهة أخرى لاسيما حين لا يكون الأبناء من محبى العلوم والثقافة، فتتعرض للتلف وقد تباع بأبخس الأثمان لمن لايعرف قدرها، وفى أماكن متعددة، وقد يتم التخلص منها بطريقة أو بأخرى.

جاء فى ترجمة محمد بن يحيى الذهُّلى (المتوفى سنة ٢٥٨هـ)، قول ابن الشرقى عن مصير كتبه: سمعت أبا عمرو المستملى، يقول: دفنت من كتب محمد بن يحيى بعد وفاته ألفى جزء[٤].

ومنهم من ضاعت كتبه بعد موته فقد ذكر أن أحمد بن عبدالملك بن الشهيد (المتوفى سنة ٤٢٦هـ)، كانت له مكتبة فى منزله تحتوى على عدد ضخم من الكتب؛ لأنه كان كاتبًا لكن هذه المكتبة أهملت بسبب أولاده من بعد وفاته[٥].

---

(١) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ١٠: ٤٦٩ .

(٢) ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، ١ : ٣٢٩ .

(٣) السخاوى، محمد بن عبدالرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١١: ٧٦ .

(٤) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ١٢: ٢٧٨ .

(٥) ابن بسام، على بن محمد، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة؛ تحقيق إحسان عباس بيروت: دار الثقافة، د.ت ، ١ : ١٩٧ .

ويقول ابن أبى أصيبعة: «حدثنى نسيب لموفق الدين بن المطران (المتوفى سنة ٥٨٧هـ)، أنه لما توفى كانت عنده مسودات عدة مصنفات طبية وغيرها وتعاليق متفرقة، فأخذ أخواته تلك المسودات وضاعت بينهن، وقال لى: إنه رأى عند إحداهن صندوقًا أرادت أن تبطنه وقد ألصقت فى باطنه مجلدة من هذه الأوراق التى بخطه»[١].

وكان خليل عبدالله خير الدين البابرتى العنتابى (من علماء القرن التاسع الهجرى)، يعاشر الأمراء كثيرًا،وخلف كتبًا كثيرة بعد موته[٢] ولكنها أهملت ولم يعن بها. وحدث لمحمد أمين العمرى (المتوفى سنة ١٢٠٣هـ)، الشىء نفسه فجميع متروكاته وأوراقه صارت بعد وفاته شذر مذر[٣].

وحول جهل الورثة بقيمة المخطوطات تقول عائشة عبدالرحمن: «أذكر فيما أعى من ذكريات طفولتى قاعة مظلمة مهجورة فى بيت جدى لأمى بدمياط، كدست فيها أكوام من المخطوطات معفرة بالتراب تعبث فيها العتة والأرضة، وبين حين وآخر كانت أوراق منها تؤخذ فينفض عنها التراب وتستخدم فى بعض الأغراض المنزلية الهينة دون تهيب أوتحرج. وربما تسلل صغار الأسرة - وأنا منهم - فحملوا منها وقودًا للحرائق الصغيرة التى جرت عادتنا على إشعالها فى الصبح الباكر من شم النسيم[٤].

ويقول زهير الشاويش: ومما سمعته منذ سنوات أن إحدى المكتبات العامة اشترت مكتبة أحد العلماء الأفاضل - بعد موته - وعندما جرى تحميل الكتب نادتهم زوجة المتوفى طالبة منهم حمل صندوق تركوه.. ولما قالوا لها: هذا الصندوق لاعلاقة له بالكتب المشتراة، أصرَّت عليهم لأخذه.. لأن الصندوق يضايق مدخل المنزل!!

وحملوا الصندوق... وإذا فيه مجموعة من إجازات ذلك العالم، وبعض نوادر المخطوطات التى تساوى ثلاثة أضعاف ما قدروا ثمنًا للمكتبة كلها[٥].

ثالثًا- غيرة النساء:

تسببت غيرة النساء من الكتب فى إضاعة بعضها، حيث نقلت لنا بعض المصادر قصصًا وحكايات من هذا القبيل.

---

(١) ابن أبى اصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ٢ : ١٨١ .

(٢) السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٣: ١٩٩ .

(٣) محمود شكرى الألوسى، المسك الأذفر فى نشر مزايا القرن الثانى عشر والثالث عشر؛ تحقيق عبد الله الجبورى، الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ١٩٨٢/م، ص ٤٤٤ .

(٤) عائشة عبدالرحمن، تراثنا بين ماض وحاضر، (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٧٠م)، ص ٣٩ .

(٥) زهير الشاويش، هوامش دفتر المخطوطات، بيروت: المكتب الإسلامى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ص ١٧ - ١٨ .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره السيوطى: أنه كان عند الليث بن المظفر نسخة من «كتاب العين»، وكان لايزال مكبًا عليه مقبلاً على حفظه، واتفق أنه «اشترى جارية نفيسة، فغارت ابنة عمه وقالت: والله لأغيظنه. وإن غظته فى المال لايبالى، ولكنى أراه مكبًا ليله ونهاره على هذا الكتاب - كتاب «العين» المنسوب للخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٠هـ)، - والله لأفجعنه به فأحرقته. فلما علم اشتد أسفه، ولم يكن عند غيره منه نسخة[١]».

وقد كاد أمر هذا الكتاب - بعد حرقه - يطوى من صحيفة الوجود، لولا أن الليث بن نصر بن سيار، تلميذ الخليل، قد أقبل على حفظ هذا الكتاب فى حياة مؤلفه، فحفظ منه النصف، فلما مات أستاذه «أملى النصف من حفظه، وجمع علماء عصره وأمره أن يكملوه على نمطه. وقال لهم: مثّلوا واجتهدوا. فعملوا هذا التصنيف الذى بأيدى الناس[٢].

وقد عبّرت زوجة الزهرى عن غيرة النساء من الكتاب - وإن لم تقم بإتلاف شىء منها - عندما رأت الكتب حوله يشتغل بها عن كل شىء من أمور الدنيا، فقالت له: «والله لهذه الكتب أشد علَّى من ثلاث ضرائر»[٣].

رابعًا - الهدايا:

وهناك الكثير من المخطوطات الثمينة والغنية بزخارفها وموضوعاتها وجلودها أهديت إلى شخصيات غربية زارت بلادنا العربية.

وعملية إهداء المخطوطات التى تعود ملكيتها للدولة أو الناس جميعًا ليست بالأمر الحديث، فقد تعرضت مقتنيات المكتبة الملحقة بمسجد الكواكبى بمدينة حلب إلى الضياع والاختفاء نتيجة للإهمال تارة، والإهداءات غير المسئولة التى كان يقوم بها المشرفون على المكتبة لأولى الأمر وخاصتهم تارة أخرى[٤]. وذُكر بأن أكثر مجموعات الكتب ثراء فى مسجد الأمويين بدمشق مجموعة مكتبة «قبة المال» التى كانت ملحقة ببيت المال وتمثل موقعًا وسطًا بمسجد الأمويين، وكانت تحتوى على مخطوطات بلغات مختلفة تناولت الحضارات القديمة ومختلف فنون المعرفة إلى جانب المصاحف

(١) السيوطى، بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، ٢: ٢٤٥ .

(٢) السيوطى، بغية الوعاة ...، ٢: ٢٤٥ .

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ١: ٤٥١ .

(٤) محمد أسعد طلس، "المخطوطات وخزائنها فى حلب"، القاهرة: مجلة معهد المخطوطات العربية، (مايو ١٩٥٥م)، ع١، مج١، ص ص ١٦ - ١٩ .

والكثير من الوثائق الشرعية والإدارية التى تتعلق بعقود البيع والشراء والزواج والإرث والوصايا والهبات وغيرها. وأغلب هذه المخطوطات فقدت بسبب قيام السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى بإهداء الكثير من المخطوطات القيمة منها والثمينة إلى الإمبراطور الألمانى وليام الثانى وتوزيع الباقى على أعيان مدينة استانبول ودمشق وكبرائها. وما تبقى وهو القليل حفظ فى الأرشيف الوطنى بدمشق.

وذكرت بعض المصادر قيام السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى استجابة لاقتراح من الإمبراطور العام الألمانى وليام الثانى عام ١٣١٧هـ بفتح محتويات مكتبة «قبة المال» فى الجامع الأموى بدمشق وفحصها، وعندما انتهت المهمة، أصدر مرسومًا بأن يرسل معظم ما فيها من مخطوطات نادرة هدية شخصية للحاكم الثانى[١].

خامسًا - المجلدون:

ومن الأسباب التى أدت إلى ضياع كتب التراث العربى الإسلامى المخطوط قيام بعض المجلدين بتجليد المخطوطات باستخدام أوراق مخطوطات أخرى، وذلك بضمها مع بعضها البعض، وقد تحتوى هذه الزوراق على رسائل صغيرة أو وثائق ذات قيمة علمية مهمة قد لايدرك قيمتها المجلد.

يقول السخاوى عن كتب ناصر بن أحمد بن يوسف البسكرى (المتوفى سنة ٨٢٣هـ)،: إنه شرع فى جمع تاريخ للرواة لو قدر له أن يبيض لكان مائة مجلدة جمع منه فى مسوداته ما لا يعد ولا يدخل تحت حصر، ولم يقدر له أن يبيضه ومات فتفرقت مسوداته شذر مذر، ولعل أكثرها عمل بطائن لجلود الكتب[٢].

وعن تأثير بعض المجلدين وتسببهم فى ضياع بعض المخطوطات العربية الإسلامية يقول عبدالله الحبشى: كثير من الكتاب ضاعت بسبب قيام بعض المجلدين الجهلة بإلصاق الأوراق ببعضها البعض لتصبح ورقة واحدة غليظة تقوم مقام البطانة، ومن يتأمل الجلود لتلك الكتب القديمة يجد مصداق ما قلنا؛ بل إنى استطعت أن أستخلص من جلد واحد الأوراق الأولى لعدة كتب نادرة[٣].

---

(١) محمد كرد على، خطط الشام. دمشق: مطبعة الترقى، ١٩٢٦م، ٦: ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) السخاوى، الضوء اللامع ....، ١٠: ١٩٥ .

(٣) عبدالله الحبشى، الكتاب فى الحضارة الإسلامية، الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م، ص ١٢٠ .

المبحث الثانى

الفتن والصراعات الداخلية

من الأسباب التى أدت إلى ضياع الكثير من تراثنا العربى الإسلامى المخطوط الفتن الداخلية التى حدثت فى عالمنا العربى والإسلامى، والتى انتشرت وترعرعت فى مناطق متعددة وأوقات مختلفة، ووجدت من يشجعها وينميها ومن بين هذه الفتن :

أولاً - الصراع المذهبى:

أدى الصراع المذهبى بين الفرق الإسلامية إلى ضياع الكثير من كتب التراث العربى الإسلامى . وبالنظر إلى المذاهب الأربعة فى الإسلام المذهب الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى نجد أنه لا يوجد بين هذه المذاهب أى اختلاف فى أصول الدين. ومع ذلك فقد ذكرت لنا بعض المصادر أن الأمور بين فقهاء دمشق فى العصر الأيوبى كانت لا تجرى على خير، فالتناحر كان على أشده بين الشافعية والحنابلة، وبين الحنابلة والحنفية، وكان هؤلاء الفقهاء يحسد بعضهم بعضاً، ويتعرضون لمذاهب بعضهم بالنقد والتجريح.

وفى القرن الرابع الهجرى، بدأ التفكك واضحاً بين الفرق الإسلامية وذلك أواخر الدولة العباسية ,وبدأ التعصب المذهبى يدفع الناس إلى مالا يرتضيه الدين نفسه. وكان أكثر المذاهب تنازعاً هما الحنابلة والشوافع فى بغداد وغيرها، وكان الحنابلة - إلى جانب خلافاتهم مع الشافعية - قد اشتدوا فى محاربة الشيعة، وكثرت الفتن بين الشيعة وأهل السنة فى الكرخ ببغداد وغيرها من المدن .

ووسط هذه المظاهر من التطرف والخلافات ظهرت الدعاوى الدينية المنحرفة وسط فئات من الناس المؤيدة لهذا أو ذاك، وبدأ القتل العلنى لمن يخالف فى آرائه رأى الخليفة والفقهاء والعامة، ونتيجة لهذه الدعاوى المنحرفة وتعصب العامة وجدت ظاهرة أخرى إلى جانب القتل العلنى، ألا وهى ظاهرة إحراق الكتب التى تحمل آراء المخالفين.

ومن أمثلة ذلك ما ذكر من أن الصاحب بن عباد (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ)، دفع عشرة آلاف دينار لخازن مكتبة الخلفاء العباسيين فى بغداد ليحرقها، من أجل إتلاف النسخة الوحيدة المحفوظة فيها من كتاب " المختصر " لأبى الحسن الأشعرى، وهو تفسير ضخم فى خمس مئة مجلدة، لأنه ضد المعتزلة [١].

---

(١) يوسف العش، دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر فى العصر الوسيط. بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١١ه/١٩٩١م، ص ٣٠٤ .

ومما ورد فى كتاب إلى الخليفة العباسى القادر بالله (المتوفى سنة ٤٢٢ هـ)، من السلطان الغزنوى، محمود بن سبكتكين (المتوفى سنة ٤٢١ هـ)، أنه فى سنة ٤٢٠ هـ، حارب الباطنية والمعتزلة والروافض فصلب منهم جماعة، " وحول من الكتب خمسين حملاً، ما خلا كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض، فإنها أحرقت تحت جذوع المصلبين، إذ كانت أصول البدع" [١].

ويقول ابن العديم فى كتاب " الإنصاف " إنه كان بحلب خزانة كتب فى الشرقية التى بجامع حلب، فى موضع خزانة الكتب اليوم. واتفقت فتنة فى بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة، ونهبت خزانة الكتب وكان ذلك فى زمن أبى العلاء المعرى (المتوفى سنة ٤٤٩ هـ)، ولم يبق فى خزانة الكتب إلا القليل " [٢].

وفى عام ٤٦٠ هـ قام المستنصر الفاطمى بحرق خزانة الكتب فى حلب بعد أن قتل ثابت بن أسلم الحلبى الفقيه الشيعى بسبب كتاب ألفه فى كشف عُوار الإسماعيلية وبدء دعوتهم، وأنها على المخاريق، فأخذه داعى القوم، وحُمل إلى مصر، فصلبه المستنصر، وأحرقت لذلك خزانة الكتب بحلب وكان فيها عشرة آلاف مجلدة [٣].

ومع سقوط دولة الفاطميين الشيعية، وقيام دولة بنى أيوب السنية على أنقاضها فى مصر عام ٥٦٧هجرية أبيدت الكتب الشيعية الفاطمية الموجودة بدار الحكمة بالقاهرة، ثم عمد إلى بقية الكتب حيث تم تشتيتها هنا وهناك[٤].

وتعرضت مدينة القيروان بتونس أثناء فترة حكم الملك العالم المؤيد بن باديس فى القرن الخامس الهجرى إلى الدمار ,وذلك عندما عمد الخليفة إلى الفاطمى المنصور حاكم مصر، الذى كان حانقاً على المؤيد بن باديس لتمرده على سلطته الروحية، وتركه للمذهب الشيعى وإتباعه للمذهب السنى . إلى تحريض الآلاف من رجال القبائل العربية من بنى هلال وبنى سليم، وإرسالهم للقضاء على حكم أسرة الصنهاجى فى تونس .

ودخلت القبائل المصرية مدينة القيروان بعد انتصارها على ابن باديس حوالى عام ٤٤٩هجرية وانسحب ابن باديس تاركاً عاصمة ملكه عرضة للنهب والتخريب على يد القوات الغازية. وكان أن انسحب أولاً إلى سابرا، ومنها توجه إلى مدينة المهدية، حيث

(١) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ٢: ٣١٠ .

(٢) يوسف العش، دور الكتب العربية ....، ص ص ١٦١. ١٦٢ .

(٣) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ١٨ : ١٧٦ .

(٤) محمد جبر أبو سعده، " مكتبة القاهرة الفاطمية"، القاهرة: مجلة الأزهر، (محرم ١٣٩٠هـ/ مارس ١٩٧٠م)، ص ٧١ .

توفى فيها بعد بضع سنوات، وفى غمار حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى أصابت البلاد فى تلك الفترة، تعرضت الغالبية العظمى من مجموعات الكتب بالقيروان إلى السلب والنهب والتخريب، بما فى ذلك تلك المجموعات الثمينة التى كانت موجودة فى المكتبة العتيقة، ولم يُستثنَ من ذلك إلا مجموعة صغيرة من المخطوطات النادرة، يقال: إنها كانت مخبأة فى مقصورة ابن باديس الخاصة بالمسجد، ولم يتنبه إليها الغزاة [١].

وبالرغم من الدمار الشامل الذى تعرضت له المكتبة، العتيقة إلا أنها استعادت تدريجياً بعض ما كانت عليه من رونق وبهاء .

وقد مر قرنان من الزمان قبل أن تعوض المكتبة العتيقة بمسجد القيروان ما فقدته من مقتنيات، وتسترد مكانتها المعهودة، إلا أن هذا الازدهار الوقتى لم يستمر طويلاً .فقد زار العالم المصرى محمد بيرم مدينة القيروان عام ١٣١٥هجرية، ووصف حالة المكتبة فى ذلك الوقت قائلاً : " كان يوجد داخل المقصورة خزانتان كبيرتان مملوءتان برزم من الأوراق ,المربطة معاً بالحبال والخيوط، والتى تشتمل - فى مجملها - على أشتات متناثرة من صفحات الكتب المختلفة مع بعضها البعض بدون ترتيب أو نظام تعلوها الأتربة ونسيج العنكبوت، ويبدو أن هذا يمثل كل ما تبقى من كنوز مكتبة القيروان ,التى عانى الكثير من الحكام والملوك فى جمعها وحفظها[٢].

وذكر الذهبى فى " سير أعلام النبلاء " أن السلطان يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ)، مال إلى الظاهر وأعرض عن المالكية وأحرق ما لايحصى من كتب الفروع، وقال عبد الواحد بن على: كنت بفاس فشهدت الأحمال يوتى بها فُتحرق " [٣].

وذكر السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، أن خانقاه قوصون بالقرافة بنيت فى سنة ست وسبعمائة، وأول من ولى مشيختها الشمسى محمود الأصفهانى، الإمام المشهور صاحب التصانيف المشهورة، وكانت من أعظم جهات البر، وأعظمها خيراً، إلى أن حصلت المحن سنة ست وثمانمائة، فتلاشى أمرها كما تلاشى غيرها [٤].

---

(١) محمد بيرم، " مدينة القيروان"، المقتطف، (ابريل ١٨٩٧م)، ٢١: ٢٤١ ـ ٢٤٦ .

(٢) محمد بيرم، " مدينة القيروان"، ٢١: ٢٤١ـ ٢٤٦ .

(٣) الذهبى، سير اعلام النبلاء، ٢١ : ٣١٣ .

(٤) السيوطى ، عبدالرحمن بن أبى بكر بن محمد، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧م، ٢ : ٢٦٦ .

ويقول زهير الشاويش: ومن أواخر ما سمعنا، ما ذكرته فى مقدمة " الكلم الطيب " وخلاصته أن أحد الأمراء استوطن دمشق فى أواخر القرن الماضى، وكان ذا سلطان ومال، فقام بجمع مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية ـ وأمثالها من مؤلفات علماء السلف ـ وحرقها، وإن تعذر عليه ذلك، ولم يستطع أن يلزم ملاكها بحرقها، كان يستوهبها أو يشتريها منهم. وربما التمس وسائل أخرى، وفى بعض منها: التدليس والتحايل والتهديد، مثل أن يقول له: أعطنا الكتاب لندرسه! فإذا طالب به صاحبه، قال له: درسناه ... ويقصد بالثانية: الإتلاف، بينما فهم منه المالك فى الأولى المدارسة والاطلاع !! وكان ذلك انتصاراً منه لمذهب الحلول والاتحاد وإتباعاً لابن عربى، محمد بن على (المتوفى سنة ٦٣٨ هـ) [١].

ثانيًا - اضطهاد العلماء وإتلاف كتبهم بسبب مذاهبهم وآرائهم أو مواقفهم:

تعرض بعض العلماء للاضطهاد وإتلاف مصنفاتهم وممتلكاتهم من الكتب إما لمذهب مخالف اعتنقوه أو بسبب الزندقة والفلسفة والتحدث بالغيب أو نتيجة اختلاف فى الرأى إلى غير ذلك من الأسباب الأخرى.

١ - الاختلاف المذهبى:

ومن بين العلماء الذين تعرضوا للاضطهاد وحرق وإتلاف مصنفاتهم بسبب اعتناقهم لمذاهب تخالف مذاهب حكامهم: أبو جعفر الطوسى محمد بن الحسن بن على (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ)، شيخ الشيعة، أحرقت كتبه عدة نوب فى رحبة جامع القصر [٢].

وقام أمراء المرابطين بحرق كتب الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ)، خاصة كتاب "إحياء علوم الدين" حيث انقسم الناس فيه إلى فريقين: الأول: يرى أن الكتاب يشترى بوزنه ذهباً وهم الصوفية، والفريق الثانى يرى أنه يحرق بوزنه حطباً [٣].

ويعلق الذهبى على إحراق كتب الغزالى بالقول: إن كتاب " الإحياء " فيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لو لا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفى الصوفية. ولعل هذا السبب الذى أدى إلى إحراق كتبه[٤].

---

(١) زهير الشاويش، هوامش دفتر المخطوطات، ص ١١ .

(٢) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ١٨: ٣٣٥ .

(٣) أحمد بن عبدالله الباتلى، علماء احترقت كتبهم أو دفنت أو غرقت أو محيت، ص ٢٧ .

(٤) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ١٩: ٣٣٩ .

وزين بن خليل بن موسى بن يوسف الزين الأنصارى الخزرجى العاملى (المتوفى سنة ١٢١١هـ)، فاضل إمامى قتله أحمد الجزار الحاكم التركى فى قرية " تبنين" وأحرق جثته ومكتبته سنة ١٢١١هـ [١].

ومحمد بن حسن بن على العاملى (المتوفى سنة ١٢٠٧ هـ)، وهو جّد " آل شكر " الشيعة فى بعلبك. قتله أحمد باشا الجزار وأحرق كتبه [٢].

والقورصاوى، عبد النصير بن إبراهيم (المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ)، فقيه سلفى العقيدة جاهر بنبذ التقليد، وعندما زار بخارى لقى فيها من أنصار التقليد أذى كبيراً، فأحرقوا بعض كتبه وأفتوا بقتله [٣].

وهكذا أدت الخلافات المذهبية إلى خسارة فادحة أضاعت الكثير من التراث العربى الإسلامى المخطوط والأمثلة كثيرة فى بطون الكتب إلا أن الدارس اقتصر على بعض النماذج للتدليل على خطورة الخلافات المذهبية وأثرها فى إضاعة التراث.

٢ - الزندقة والفلسفة:

ومن الأسباب التى أدت إلى ضياع الكثير من كتب التراث مناوأة رجال الفلسفة واتهام بعض المصنفين من العلماء بالزندقة والاشتغال بالفلسفة والتنجيم.

ولقد لقيت كتب الفلسفة والتنجيم اهتماماً لدى بعض خاصة الناس فى بعض مناطق المملكة الإسلامية كالأندلس، إلا أنهم لم يكونوا يستطيعون التظاهر بها خوفاً من العامة.

وكان يطلق اسم " زنديق " على كل من قيل عنه (فلان يقرأ الفلسفة) أو يشتغل بالتنجيم ، فيرجم بالحجارة ويقتل من يشتبه به .

وبعض الملوك كانوا يأمرون فى كثير من الأحيان بحرق كتب هذا الشأن إن وجدت.

يقول صاحب " نفح الطيب... " فى سياق حديثه عن الثقافة فى بلاد الأندلس : "وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زل فى شبهة

(١) خير الدين الزركلى، الأعلام، ٣: ٦٣ .
(٢) خير الدين الزركلى، الأعلام، ٦: ٩٢ .
(٣) خير الدين الزركلى، الأعلام، ٤: ١٧١ .

رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور ابن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن على ما ذكره الحجارى[١] " .

وذكر الجاحظ فى كتاب " الحيوان " أن الزنادقة قد عرفوا بزخرفة كتبهم فكانوا يختارون لها الحبر الأسود المزوق بالبراق والورق النقى البياض، وكانوا يبالغون فى استخدام الذهب والفضة فى تحليتها. وعندما أحرقت كتبهم سنة ٣١١ هـ سقط منها قدر كبير من الفضة والذهب [٢].

وعندما تولى المنصور ابن أبى عامر (المتوفى سنة ٣٩٣ هـ)،الحكم فى الأندلس أمر بحرق كتب الفلسفة التى كانت موجودة بمكتبة قرطبة فى ميدان عام إرضاء للعامة والفقهاء فى عهده . فأحرقت بمشهد من العلماء ، وطمر كثير منها ، وكانت كثيرة جداً[٣] .

وقد عمل صاحب المغرب يعقوب بن السلطان يوسف مكتباً للأطفال الأيتام وقام بإحراق كتب الفلسفة وترك كتب الطب والهندسة[٤].

وجاء فى ترجمة ابن تاشفين السلطان، صاحب المغرب، أمير المسلمين أبوالحسن، على ابن صاحب المغرب يوسف بن تاشفين، البربرى، ملك المرابطين: أن الفلسفة أهينت فى عصره، ومُجَّ الكلام، ومقت، واستحكم فى ذهنه أن الكلام بدعة ما عرفه السلف، فأسرف فى ذلك، وكتب يتهدد، ويأمر بإحراق الكتب، وكتب يأمر بإحراق تواليف الشيخ أبى حامد، وتوعد بالقتل من كتمها [٥].

وذكر الذهبى قصة إحراق مكتبة عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر ابن أبى صالح بن جنكى دوست الجبلى المتوفى سنة ٦١١ هـ)، البغدادى المدعو بالركن (عاصر الخليفة العباسى الناصر لدين الله (المتوفى سنة ٦٢٢ هجرية) والذى عرف عنه اهتمامه بجمع الكتب الخاصة بعلوم الأوائل، ومن بينها كتب الفلسفة والكتب العلمية. وهذا أدى إلى التشهير به وحكم بفسقه. وقد أدى ذلك إلى إحراق كتبه .

(١) المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م، ٦: ١٠٧، ٢٠٥ .

(٢) الجاحظ، الحيوان، ط٢، القاهرة: مطبعة مصطفى البابى الحلبى، د. ت، ١: ٥٧،٥٨ .

(٣) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ١٧: ١٥ .

(٤) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٢١ : ٣١٧ .

(٥) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٢٠ : ١٢٤ .

يقول القفطى : عندما برزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع فى بغداد يعرف بالرحبة لحرقها بحضور الجمع الجم . ففعل ذلك وكلف بتنفيذ هذه المهمة عبيدالله التيمى البكرى، المعروف بابن المارستانية، وجعل له منبر صعد عليه وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم ، وذكر الركن عبد السلام صاحب المكتبة بشر وكان يخرج الكتب التى له كتاباً كتاباً فيتكلم عليه ويبالغ فى ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه فى النار[١] .

وذكر أن أبا فضل الله بن أبى الخير بن غالى الهمذانى له تفسير على القرآن فسره على طريقة الفلاسفة، فنسب إلى الإلحاد، وقد أحرقت تواليفه بعد قتله[٢] . كما قام يعقوب ابن السلطان يوسف بإحراق كتب الفلسفة سوى الطب والهندسة[٣] .

وكان ابن مسرة من الزهاد الذين تتبعت مصنفاته بالحرق وهجرت، وحجرت على الناس. وقد وصفها الفتح بن خاقان بأنها مقالات رديئة بعدت به عن سبيل الرشد[٤].

ولسان الدين ابن الخطيب، محمد بن عبد الله (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ)، صاحب كتاب "الإحاطة فى أخبار غرناطة". وجهت إليه تهمة الزندقة و سلوك مذهب الفلاسفة وأفتى بعض الفقهاء بقتله. نسبوا إليه أقوالاً ومقالات مما جاء فى بعض كتبه ورسائله أولوها وفق مقاصدهم، وزعموا أن فيها ما يتضمن طعناً فى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتولى صوغ الاتهام عدو ابن الخطيب الألد القاضى أبو الحسن النباهى، وأفتى بحرق كتبه التى تتناول العقائد والأخلاق، ويقول أبو الحسن : إن هذه الكتب قد تم إحراقها بالفعل فى حضرة غرناطة فى منتصف عام ٧٧٣هجرية [٥].

وفى سنة ٩٠٢ هـ قام الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب القرشى (المتوفى سنة ٩٢٣ هـ)، بمعاقبة رئيس الإسماعيلية فى مدينة تعز باليمن بسبب تحدثه بالمغيبات، فقبض عليه وألقاه فى دار الأدب، وأمر بإحضار كتبه وإتلافها فأتلفت [٦].

---

(١) ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ؛ تحقيق لجنة إحياء التراث العربى. بيروت : دار الآفاق الجديدة ، د.ت ، ٥: ٩٨ .

(٢) ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٣: ٤٦٤ .

(٣) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٢١: ٣١٧ .

(٤) المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ٥: ٩٧ .

(٥) لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ تحقيق محمد عبدالله عنان. القاهرة : مكتبة الخانجى ، ١٩٧٣ - ١٩٧٧م ، ١ : ٥٠ .

(٦) العيدروس، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ص ٢١ .

٣ - الاختلاف فى الرأى:

ذكرت بعض المصادر قيام البعض من العلماء أو غيرهم بإتلاف كتب غيرهم ممن يختلفون معهم فى الرأى.

ومن أمثلة هؤلاء: نعيم بن حماد (المتوفى سنة ٢٠٧هـ)، قال: أنفقت على كتب إبراهيم ابن أبى يحيى خمسة دنانير، ثم اخرج إلينا كتاباً فيه القدر وكتاباً فى رأى جهم، فقرأته فعرفت، فقلت: هذا رأيك: قال: نعم فحرقت بعض كتبه وطرحتها. وهذا يدل على أن سبب حرق كتبه اختلاف الرأى علماً بأن إبراهيم لم يكن من الثقات.[١]

وقيام خازن مكتبة رباط المأمونية فى بغداد بإتلاف كتاب " نقض القرآن" لأبى العلاء المعرى لمجرد أنه لا يتفق معه فى الرأى[٢].

وقيام الأديب النحوى على بن عيسى الربعى (المتوفى سنة ٤٢٠هـ) بوضع كتاب سيبويه فى إناء وصب عليه الماء وغسله وجعل يلطم الحيطان ويقول لا أجعل أولاد البقالين نحاة بسبب منازعة أحد التجار له فى مسألة[٣].

وقيام تقى الدين السبكى(المتوفى سنة ٧٥٦هـ)، بتقطيع كتاب " الطرائف" وغسله بسبب ذكر صاحبه بعض المسائل التى لم تعجب السبكى [٤].

٤ - الحقد والحسد:

وممن احرقت كتبه بسبب الحقد والحسد: ابن حزم، على بن أحمد بن سعيد الأندلسى القرطبى (المتوفى سنة ٤٥٦هـ)، حيث أمر المعتضد بن عباد (المتوفى سنة ٤٦٤هـ)، صاحب إشبيليا بحرق كتبه.

جاء فى ترجمة ابن حزم أنه كان من محبى الكتب، وجمع منها أعداداً جمة، كما ألف العديد من الكتب، وأضحت مكتبته من بين أضخم المكتبات الخاصة فى بلاد الأندلس. نظر إليه البعض بعين الحقد والحسد وأثاروا حوله الجدل، مما حدا بابن عباد صاحب إشبيليا أن يأمر بحرق كتبه علناً.

ويذكر الذهبى سبب إحراق كتب ابن حزم بقوله:" بسط (ابن حزم) لسانه وقلمه ولم يتأدب مع الأئمة فى الخطاب بل فجج العبارة وسبّ وجدّع فكان جزاؤه من جنس

(١) الذهبى، ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، ١: ٦١ .
(٢) شعبان خليفة، الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى، ص ٢٥٦ .
(٣) ياقوت الحموى، معجم الدباء، ١٤: ٧٩ .
(٤) شعبان خليفة، الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى، ص ٢٥٦ .

فعله، بحيث إنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة وهجروها ونفروا منها، وأحرقت[١].

وقد يكون الكذب أحد أسباب حرق الكتب. قال على بن حيان: ذهبنا مع عمر بن هارون بن يزيد بن جابر بن سلمه (المتوفى سنة ٧٤٥هـ)، وقد اتهم بالكذب. ولما تبين لنا أمره بعد ذلك فحرقت حديثه كله ما عندى عنه كلمة إلا أحاديث على ظهر دفتر[٢].

٥ - نقمة الحكام:

تعرضت بعض كتب التراث للحرق بسبب نقمة بعض الحكام.

ومن أمثلة ذلك: ما قام به الحكم بن هشام (المتوفى سنة ٢٠٦هـ)، من ملوك بنى أمية بالأندلس حيث نمى إليه أن أهل الربض - وهى محلة متصلة بقصره - يدبرون مكيدة للإيقاع به فقام بإحراق جميع الكتب الموجودة لدى أهل الربض.[٣]

وقد يقوم الخليفة بحرق كتب عالم انتقاماً منه لجرم ارتكبه ومثال ذلك ما قام به أحد خلفاء الدولة العباسية، يوسف بن محمد العباسى (المتوفى سنة ٥٦٦هـ)، فقد ثبت له أن قاضيًا يعرف بابن المرخم أخذ أموالاً كثيرة من الناس بالباطل فقام بحبسه ومصادرة أمواله وحرق كتبه[٤].

ومن الأمثلة الأخرى على انتقام الحكام من بعض العلماء ما حدث لمحمد بن عبدالله، ابن الأبَّار (المتوفى سنة ٦٥٨هـ)، كان من أعيان المؤرخين، استقر بتونس فقرّبه صاحبها السلطان أبو زكريا، وولاه كتابة " علامته" فى صدور الرسائل مدة ثم صرفه عنها، وأعاده. ولما مات أبو زكريا خلفه ابنه المستنصر، فرفع هذا مكانته. ثم علم المستنصر أن ابن الأبَّار كان يزرى عليه فى مجالسه، وعزيت إليه أبيات فى هجائه أولها:

طغى بتونس خلْفُ سموه ظلماً خليفة

فاستشاط السلطان لها، وأمر بامتحانه ثم بقتله، فقتل قعصاً بالرماح وسط محرم سنة ٦٥٨هـ، ثم أُحرق وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأُحرقت معه[٥].

---

(١) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ١٨ : ١٨٤ - ٢٠١ .

(٢) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٩: ٢٧٢ .

(٣) ابن عميرة الضبى، بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس، ١٤: ٣٤ .

(٤) خير الدين الزركلى، الأعلام، ٨: ٢٤٧ .

(٥) المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٣: ٣٤٥، وخير الدين الزركلى، الأعلام، ٦: ٢٣٣ .

ثالثاً ـ الفوضى السياسية والإدارية والحالة الاقتصادية:

أدت الفتن والثورات الداخلية المتعددة التى كانت تحدث فى بعض الديار العربية والإسلامية بسبب الاختلاف العقائدى أو السياسى، بالإضافة إلى تأخر دفع المرتبات، وكذلك تردى الأوضاع إلى ضياع الكثير من تراثنا العربى الإسلامى المخطوط. ففى مثل هذه الأجواء يقوم البعض من عامة الناس باستغلال تلك الأوضاع، ومن ثم القيام بالسطو على الكتب الموجودة فى مكتبات المساجد والمكتبات العامة، وينهبون منها ما يقدرون على حمله، وقد روت لنا كتب التاريخ الكثير من تلك الحوادث المؤسفة.

ففى سنة ٤٥١ هجرية قام السلاجقة الذين استولوا على مدينة بغداد بإحراق مكتبة سابور الشهيرة التى أنشأها نصر بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى سنة ٣٨٣ هجرية، وكانت هذه المكتبة قبلة العلماء والأدباء يقصدونها فى كل وقت للقراءة والدرس وكانت غنية بمحتوياتها التى بلغت آلاف المخطوطات فى مختلف فنون المعرفة ونهب ما سلم من الحريق، حيث استغل العامة الفوضى التى كانت سائدة، وقاموا بنهب بعض كتب الخزانة أثناء دخول طغرلبك بجيشه إلى بغداد. ومن المؤسف إن الوزير عميد الملك الكندرى سمع بما حدث فحضر بنفسه إلى الدار مع قوة من الجند وأزال العامة ونهب منها لنفسه أجودها وأحسنها [١].

وفى البصرة تعرضت المكتبة التى وقفها الوزير أبو منصور بن شاه مردان للحرق فقد " كان فى هذه الدار نفائس الكتب وأعيانها، وأحرقها الأعراب عام ٤٨٣هـ، عندما استولوا على البصرة، ونهبوا ما فيها نهباً شنيعاً " [٢].

وحدث الأمر نفسه أو ما يشابهه للكثير من مكتبات بغداد الأخرى وكذلك بالنسبة إلى مكتبات غزنة التى أحرقتها قوات الأمير الغورى حسين عندما خربت المدينة سنة ٥٥٠ هجرية [٣].

أما فى مصر، فقد أدت الفتن والثورات التى حدثت بها خصوصاً فى القرن الخامس الهجرى إلى ضياع الكثير من تراثنا العربى الإسلامى المخطوط.

ففى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) تعرضت مصر إلى فوضى سياسية وإدارية، بالإضافة إلى انتشار المجاعة فيها، مما عصف باقتصاد

(١) ابن الأثير الجزرى، الكامل فى التاريخ، ط٤ . بيروت: دار الكتاب العربى، ١٩٨٣م، ٩: ٢٤٦ .
(٢) ابن الأثير الجزرى، الكامل فى التاريخ، ١٠: ١٢٢ .
(٣) ابن الأثير الجزرى، الكامل فى التاريخ، ٩: ٢٩٧ .

مصر، وامتدت الأيدى إلى الكتب، وأخرجت المخطوطات من خزائنها قسراً، فنهبت منها مقادير كبيرة، وهربت إلى أماكن مختلفة.

وعندما دخل البربر قرطبة عنوة فى القرن الخامس الهجرى قاموا بنهب ما تبقى من كتب فيها [١]. وبهذا أسدل الستار على أكثر المكتبات الإسلامية انتقاء للكتب الثمينة والنادرة.

كما قام الكثير من المماليك والأتراك بإشعال النار بمكتبة الخلفاء الفاطميين، وألقى البعض الآخر فى النيل، كما اتخذ الغوغاء من جلودها نعالاً لهم[٢]. وما بقى بعد ذلك فقد ترك مهملاً فى الخلاء فتراكمت عليه الأتربة حتى كونت تلالاً، عرفت وقتئذ بتلال الكتب[٣].

وفى عهد الخليفة المستنصر أيضاً وقعت ثورة عنيفة قام بها الجنود السودان المجندون لخدمته ضد الجنود الأتراك الذين كان يقودهم فى هذه الحرب الأهلية القائد ناصر الدولة بن حمدان، والذى تمكن بعد جهود مضنية من هزيمتهم فى سنة ٤٦١هـ، وطلب من الخليفة مكافآت كبيرة له ولأصحابه، وكان أحد الموالين له الوزير أبوالفرج محمد بن جعفر المغربى الذى كوفئ بكميات كبيرة من الكتب حملت على خمسة وعشرين جملاً ,وقد فاقت قيمتها المبلغ الذى كان مستحقاً له وهو خمسة آلاف دينار، حيث بلغت قيمة الكتب التى أختارها الوزير أكثر من مائة ألف دينار[٤].

وفى مطلع القرن الخامس الهجرى حاصر البربر قرطبة، فتعرضت مكتبة الحكم المستنصر لهزات عنيفة بعد موته، وتبددت كنوزها، ثم تم توزيعها بين ملوك الطوائف.

ويقال إن كتب ابن الحسبانى، أحمد بن إسماعيل، المتوفى فى سنة ٨١٥ هجرية ضاعت وأتلفت كلها فى فتنة تيمور لما استولى على الشام[٥]. وأن محمد بن يحيى بن أحمد، ابن زهرة المتوفى فى سنة ٨٤٨ هجرية. صنف عدة تصانيف منها: " شرح التنبيه" فى أربع مجلدات احترق فى الفتنة وهو صاحب كتاب "فتح المنان فى تفسير القرآن[٦]".

---

(١) المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ١: ٨٠ .

(٢) حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٣م، ص ص ١٨٢- ١٨٣ .

(٣) المقريزى، أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . الخطط المقريزية، القاهرة: مطبعة النيل، ١٣٦٤هـ، ٢: ٢٥٣ .

(٤) المقريزى، الخطط المقريزية، ١: ٤٠٨- ٤٠٩ .

(٥) السخاوى، الضوء اللامع .... ١: ٢٣٧ .

(٦) السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت، ص ١١٣ .

المبحث الثالث

سرقة المخطوطات

تعرض تراثنا العربى الإسلامى المخطوط - عبر قرون مضت - لكثير من السرقات، وما زالت السرقة تعد من أهم وأكبر العوامل التى سببت وتسبب فى ضياع ثروات هائلة من الكنوز التى تحفل بها المكتبات العربية والإسلامية العريقة.

وهناك الكثير من الفئات التى ساهمت فى سرقة تراثنا العربى الإسلامى المخطوط وسوف نتناول فى هذا المبحث أثر هذه الفئات التى شاركت فى إضاعة الكثير من التراث عن طريق السرقة المباشرة بطريقة أو بأخرى.

أولاً - خيانة بعض أمناء المكتبات وروادها والعاملين فيها:

ذكرت لنا بعض المصادر التاريخية مشاركة بعض أمناء المكتبات بطريقة أو بأخرى فى نهب وسلب تراثنا المخطوط. وفى هذا السياق يقول الساعاتى : كان لبعض المشرفين على المكتبات دور مباشر فى خلخلة بنيتها والإساءة إلى هدفها السامى ، وذلك عن طريق التهاون فى أداء الرسالة الموكلة إليهم ، أو المشاركة فى استغلال محتوياتها عن طريق تسهيل سطوها ونهبها، أو إعارتها دون ضمان لبعض المتنفذين رغبة فى الوصول إلى أغراض دنيوية عن طريقهم[١] .

ويقول الصديق بن العربى محافظ خزانة ابن يوسف بمراكش : لقد منيت خزانة ابن يوسف بضياع الكثير من مخطوطاتها بسبب توالى الدول وكثرة الفتن ، وانتقالات مركزها مرات متوالية . وضاعت مخطوطات نفيسة بسبب قلة أمانة بعض المستعيرين، وما أصاب البعض الآخر من تلف نتيجة للإهمال[٢].

وفى ترجمة ابن قاسم العلوى يقول الصفدى: كان خازناً على مكتبة غرس النعمة الصابى أبى الحسن محمد بن هلال الصابى المتوفى فى بغداد سنة ٤٨٠ هجرية يقوم بسرقة مقتنيات المكتبة، فلم يكن أميناً عليها ، فأساء استعمالها ، فسرق وباع كثيراً من مقتنياتها[٣] .

---

(١) يحيى محمود ساعاتى، الوقف وبنية المكتبة العربية. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٩م، ص ١٧٩ .

(٢) الصديق بن العربى، فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش. بيروت: دار الغرب الإسلامى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ٢٢ .

(٣) الصفدى، الوافى بالوفيات؛ تحقيق: هلموت ريتر ... [وآخ]، فيسبادن: فرانز شتايز، ١٩٦٢- ١٩٨٠م) ، ١١٢:٢ .

وكان فى خزانة أبى زكريا الحفصى بتونس ثلاثون ألف مجلد، فنقصت إلى أن صارت ستة آلاف مجلد وقد حكى ذلك إلى الحسن بن معمر الهوارى قاضى باجة، وكان من خواص السلطان المذكور، ومن علماء دولته، وسئل عن السبب، فقال: المطر وأيدى البشر وهكذا تنقص الكتب [١].

وذكر السخاوى فى ترجمة عثمان فخر الدين البكرى التلاوى ثم القاهرى، خازن الكتب بالمدرسة المحمودية (المتوفى سنة ٨٢٩ هـ)، أنه: استقر فيها - أى فى مكتبة المدرسة المحمودية - بعد عزل السراج عمر أمام واقفها بتفريطه، ثم عزل هو أيضاً عنها بتفريطه، بعد أن عزر بالضرب بين يدى السلطان، وذكر السخاوى أن الكتب التى بالمدرسة المحمودية من أنفس الكتب الموجودة بالقاهرة، وهى من جمع البرهان ابن جماعة فى طول عمره فاشتراها محمود الأستادار من تركة والده، ووقفها وشرط أن لايخرج منها شىء من مدرسته، واستحفظ لها إمامه سراج الدين ثم انتقل ذلك لصاحب الترجمة بعد أن رفع على السراج أنه ضيع كثيراً منها، واختبرت فنقصت نحو مائة وثلاثين مجلدة، واستمر الفخر يباشرها بقوة وصرامة وجلادة وعدم التفات إلى رسالة لكبير أو صغير حتى أن أكابر الدولة وأركان المملكة كان الواحد منهم يحاوله على عارية واحدة، وربما بذلوا المال الجزيل فيصمم على الامتناع بحيث اشتهر ذلك، إلى أن رفع فيه شخص أنه يرتشى فى السر فاختبرت الكتب وفهرست فنقصت العشر سواء لأنها كانت أربعة آلاف مجلدة فنقصت أربع مائة فألزم بقيمتها فقومت بأربعمائة دينار فباع فيها موجوده وداره، وتألم أكثر الناس له. قال شيخنا ولم يكن عتبه سوى كثرة الجنف على فقراء الطلبة وإكرام ذوى الجاه، وقال عنه حين أرخ وفاته فى الإنباء إنه كان شديد الضبط لها. ثم حصل له من تسلط عليه بالخديعة إلى أن وقع فى التفريط فذهب أكثر نفائس الكتب [٢].

وذكر السخاوى أيضاً فى سياق ترجمته لمحمد بن غازى المتوفى سنة ٨٤٥هـ أنه عمل خازناً فى إحدى المكتبات المدرسية إلا أنه كان " خفيف ذات اليد [٣]" .

وكانت المخطوطات المذهبة والمزخرفة والمزينة بالأشكال الهندسية والنباتية وماء الذهب والمجلدة بجلود فاخرة أكثر عرضة للنهب والسلب فضاع بسببها عدد كبير من المخطوطات النفيسة.

(١) محمد بن عبد الله، " ناظر الوقف وتعامله مع حركة التعليم الإسلامى"، ص ٢٧٤ .
(٢) السخاوى، الضوء اللامع .... ٥: ١٤٣- ١٤٤ .
(٣) السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ص ٢٣ .

وقد كتب محمد كرد على أن بعضاً من أمناء مكتبات المساجد والمدارس فى الشام تجردوا من الأمانة، وخانوا الثقة، وقاموا ببيع كتب مكتباتهم كما لو كانت من ممتلكاتهم الخاصة.

جاء فى كتابه "خطط الشام": "ومن المصائب التى أصيبت بها كتب الشام، أن بعض دول أوروبا ومنها: فرنسا وحكومات جرمانيا وبريطانيا العظمى وهولندة وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين. وكان قومنا ولا سيما بعض من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع، بلغ بهم الجهل والزهد فى الفضائل أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب. فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم".

ويواصل محمد كرد حديثه بالقول: " وحدثنى الثقة أن أحد سماسرة الكتب فى القرن الماضى كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم فى دمشق، ويختلف إلى متولى خزائن الكتب فى المدارس والجوامع، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة وكان يبيعها على الأغلب، وأكثرها فى غير علوم الفقه والحديث، من قنصل بروسيا إذ ذاك بما يساوى ثمن ورق أبيض، وبقى هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام فاجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها إلى بلاده فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها، والغالب أن معظم الكتب العربية المحفوظة فى خزانة الأمة فى برلين هى من بلاد الشام[1] .

وتعلق عائشة عبد الرحمن على ضياع الكثير من التراث العربى الإسلامى المخطوط على يد بعض المسئولين عن خزائن الكتب المودعة فى المساجد والزوايا بالقول: " كانت هذه الذخائر التى بقيت لنا، مودعة فى المساجد والزوايا، بضاعة رخيصة لا تساوى وزنها ورقاً عند خدام المساجد الموكول إليهم أمرها. ورحم الله أجدادنا: وقفوا ما جمعوا من كنوز تراثنا الروحى والعلمى لخدمة العلم والدين، وأودعوها بيوت الله، وهم يحسبون أنها فى دور العبادة بمأمن من الضياع. ولم يدروا أنه سوف يأتى علينا وعليها حين من الدهر، يؤتمن فيه خدام المساجد والزوايا على هذه الكنوز دون رقيب، فيبيعونها بالكوم لباعة الترمس والفول كى يغلفوا فيها بضائعهم قبل أن تكثر الصحف والمجلات وتؤدى هذه المهمة.

(١) محمد كرد على، خطط الشام، ٦: ١٩٩ .

وتواصل عائشة عبد الرحمن حديثها بالقول: وقد حدّث شاهد عيان من أساتذتنا أنه رأى بعينيه خادم مسجد المؤيد يملأ السلال بنفائس المخطوطات، ويبيعها لمن يطلبها بأبخس الأثمان، وربما قبل بعض القوت عوضاً عن الثمن [١] .

ويذكر فى هذا الصدد، الأمناء الذين أوكل إليهم أمر كتب خزائن الجامع الأزهر بعد انفراط عقد مكتبته المركزية الأولى عام ١١٦٧هـ، حيث يقال بأن هؤلاء الأشخاص - الذين لقبوا بالمغيرين - قاموا ببيع الكثير من المخطوطات النفيسة لصالح جيوبهم الخاصة [٢].

وقد أشار أحد الكتّاب إلى ذلك قائلاً: "كان فى الأزهر خزائن كتب وضعت فى بعض الأروقة والحارات وبعضها فى المساجد القريبة كجامع الفاكهانى وجامع العينى ونيط حفظها جميعها بأشخاص يقال لهم المغيرون فتصرفوا فيها تصرفاً سيئاً للغاية صح معه إطلاق اسم المغيرين عليهم، لأنهم غيروا وضعها وشتتوا جمعها، ومزقوا جلودها وأوراقها وتركوا ما لا عناية لهم به منها فى التراب يأكله العث ويبليه التراب، وهذا غير ماتصرفوا فيه الملاك وصار بأيدى باعة الكتب يباع على نفاسته بالثمن البخس، ولم يبال المتصرف الأول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكتب من العبارات التى تفيد وقفها على طلبة العلم والعلماء، وبالجملة فلم يكن ليعرف للكتب قيمة ولا لينتفع بها لعدم إمكان الانتفاع [٣] .

وفى حوالى منتصف القرن التاسع عشر عين شخص اسمه ابن السليمانى أميناً لثلاث مكتبات كبرى بالقاهرة، وكان له راتب شهرى من ديوان الوقف يبلغ خمسة وعشرين قرشاً نظير ذلك، وقد دأب هذا الرجل -لتنمية دخله- على بيع قصب السكر، وكان يقف فى زاوية تحت درج مدرسة السلطان حسن ، وبالإضافة إلى محصول قصب السكر الذى كان يبيعه كانت هناك أكوام من المخطوطات التى سرقها من المكتبات الثلاث يبيعها بقرش أو قرشين[٤] .

وقد تعرضت مكتبة مسجد بيزن بمدينة بلنسية للتخريب والسلب، على يد ابن سكران[٥] - الذى استولى على بعض المخطوطات النادرة التى كانت محفوظة فى

(١) عائشة عبد الرحمن، تراثنا بين ماض وحاضر، ص ٣٩ .

(٢) محمد مكى السباعى، مكتبات المساجد: دراسة تاريخية، ص ١٤٣ .

(٣) أبو الوفا المراغى، " كلمة تاريخية عن المكتبة الأزهرية "، مجلة الأزهر، (١٩٤٣ - ١٩٤٤م)، مج ١٤: ٢٧٤ - ٢٧٧، و مج ١٥: ٤١ - ٤٣ .

(٣) عائشة عبد الرحمن، تراثنا بين ماض وحاضر، ص ٣٩ .

(٤) هو أحد الخطاطين المهرة العاملين بالمسجد.

مكتبة هذا المسجد، وعند اكتشاف السرقة ومعرفة فاعلها أعفى ابن سكران من وظيفته فى المكتبة، وتم إبعاده [١] .

أما عن خيانة بعض رواد المكتبات وإساءة المستعيرين منهم؛ فقد أشارت بعض المصادر إلى أن المجموعة الضخمة للمكتبة الحيدرية بالجامع الكبير فى النجف، والتى قدرت بحوالى أربعمائة ألف مجلد فى وقت من الأوقات، قد تضاءلت بسرعة لتصل إلى حوالى مائة ألف كتاب فقط. وأشار الدجيلى إلى أن ضياع الكثير من مخطوطاتها النفيسة كان بسبب السرقات التى ارتكبها بعض المستعيرين من ذوى النفوس الضعيفة أو فقدان الإشراف الدقيق والأمين من قبل بعض القائمين عليها [٢].

وذكر ناجى معروف أن كثيراً من مجموعات مكتبة مدرسة قايتباى بالحرم المكى قد فقدت بسبب الإهمال وعدم أمانة بعض المستعيرين [٣].

كما أن كثيراً من المخطوطات النفيسة فى مكتبة الأحمدية فى جامع الزيتونة بتونس أعيرت ولم تعد نهائياً [٤].

ويقول زهير الشاويش: حدثنى أحد علماء دمشق قال: جاء إلينا طالب علم، ونزل فى مدرستنا ... وبعد مضى أشهر على إقامته فوجئنا فجر يوم أنه غير موجود، وأنه غادر ليلاً آخذاً معه أعز مخطوطات المكتبة، بعد أن أحضر إلى قرب المدرسة بضعة رجال مع أربعة جمال، ونقلوا أكياس الكتب وغادروا إلى بلد آخر.

ويواصل الشاويش حديثه بالقول: وقد شاهدت بعضاً من هذه الكتب فى البلد الذى أشار إليه... وأغرب من ذلك أننى شاهدت بعض الكتب الموقوفة على هذه المدرسة بين كتب الشيخ المتحدث فى بلده [٥].

---

(١) خوليان ريبيرا، " المكتبات وهواة الكتب فى إسبانيا الإسلامية "؛ ترجمة جمال محمد محرز، القاهرة: مجلة معهد المخطوطات العربية، (مايو ١٩٥٨م)، ع ١، ٤: ٧٧ ـ ٩٦، و (مايو ١٩٥٩م)، ع ١، ٥: ٦٩ ـ ١٠١ .

(٢) كاظم الدجيلى، " مكتبات النجف"، لغة العرب، (مايو ١٩١٤م)، مج ٣، ع ١١، ص ص ٥٩٣ ـ ٦٠٠ .

(٣) ناجى معروف، أصالة الحضارة العربية. بغداد: مطبعة التضامن، ١٩٦٩م ، ص٤٦٧ .

(٤) " بعثة معهد المخطوطات إلى تونس "، القاهرة: مجلة معهد المخطوطات العربية، نوفمبر ١٩٥٦م، ع ٢، ص ٣٩٢ .

(٥) زهير الشاويش، هوامش دفتر المخطوطات، ص ١٦ .

ثانيًا - سرقة الأفراد للمخطوطات:

تعرضت بعض المكتبات للنهب والسلب من قبل الكثير من الأفراد ، ومما يؤسف له أن بعض رجال العلم قد ساهموا فى السطو على المكتبات وسلب ممتلكاتها من الكتب النفيسة للاستئثار بها لأنفسهم ، وحجبها عن عامة القراء .

ومن هؤلاء : عمر بن على بن أحمد السراج الأنصارى الأندلسى التكرورى المشهور بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤هـ فقد كان عنده من الكتب " ما لا يدخل تحت الحصر ، منها ما هو ملكه ، ومنها ما هو من أوقاف المدارس [١] " .

وذكر أن صالح بن عمر الكنانى العسقلانى المتوفى سنة ٨٤٨هـ قام بنهب كتب الأوقاف بالرغم من مكانته العلمية ، ووصفه بالفضل وعلو المكانة، حيث عثر فى مكتبته على جملة من الكتب مأخوذة من أوقاف المدارس ونحوها ، وتقدر بما يزيد على ألف مجلد [٢] .

وهناك من استغل منصبه فى نهب وسلب التراث العربى الإسلامى المخطوط ، ومن هؤلاء: القاضى محب الدين أبو الفضل محمد بن محمد الشهاب ابن الشحنة الحنفى المتوفى سنة ٨٩٠هـ حيث وصفه السخاوى بأنه كان مستغلاً لمنصبه فى القضاء، وذكر بأنه استنزل الشهاب ابن العينى من تصوف كان باسمه فى الأشرفية الجديدة، والبدرى بن عبيد الله من الإعادة بالصرغتمشية لولده الصغير وزوج ابنه الصغير لابنه العضدى شيخ الظاهرية ليتوصل بالتزويج والتصوف والنزول إلى أخذ المشيخة بكل من الأماكن الثلاثة المعينة، وأكثر من تسليط ابن عبيد الله على خازن المحمودية حافظ الدين بن الجلالى لينزل له عنها فما سمح فصار يناكده ويتمقته بما ضعف الخازن عن حمله ولاسيما وهو نائبه فى القضاء، ولم يسعفه إلا أن عزل نفسه عن النيابة ، هذا مع أنه حمل له من كتبها ما ينيف على مائة مجلد. وكان عنده من نفائس كل فن ما قل أن يجتمع لغيره، وربما اغتصبها ممن هى عنده. ونسب إليه أخذ تفسير الفخر الرازى وهو فى مجلد من أوقاف المؤيدية [٣] .

وقد حذا قاضى القضاة بالديار المصرية أحمد بن بدر الدين بن شعبان سلوك ابن الشحنة فى نهب التراث المخطوط وسلبه حيث وجد لديه من الكتب النفيسة ما ينوف

(١) السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٦: ١٠٥ .

(٢) السخاوى، الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة؛ تحقيق جودة هلال ومحمد محمود صبيح، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت، ص ١٨١ .

(٣) السخاوى، الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة، ص ص ٣٨٢ - ٣٨٤ .

على أربعين ألف مجلد أكثرها مسلوبة من كتب الأوقاف[١] .

ومن جملة العلماء الذين قاموا بالسطو على الكتب والمكتبات القاضى علاء الدين بن مغلى فعندما احتاج إلى كتاب الخلاف لأبى يعلى، قيل له: إنه لا يوجد إلا فى مكتبة المدرسة الضيائية، فأرسل فى طلبه فقام خازن المكتبة ناصر الدين بن زريق بجمع مجلدات الكتاب فى قفتين وأرسله له ، ومن ثم انفرط أمر المكتبة وطمع الناس فيها حيث أخذ ابن حجر منها عدة أحمال ، ثم جاء الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين فأخذ منها ثم جاء قطب الدين الخيضرى فأخذ ثم قام القاضى ناصر الدين بن زريق الثانى فاستولى على أحاسن ما فيها[٢].

ولم يتوقف الأمر على هؤلاء بل شارك بعض الفقهاء وغيرهم فى نهب الكثير من الكتب التى كانت محفوظة فى المكتبات عن طريق استعارتها وعدم إعادتها.

وهناك الكثير من العلماء الذين تعرضت كتبهم للسرقة، ومن بين هؤلاء : أبو الفتح محمد ابن عمر بن أبى بكر بن محمد بن على بن الشرابيشى الشافعى، كان يعلق الفوائد التى يسمعها فى مجالس المشايخ والأئمة حتى حصل من ذلك جملة كبيرة، ثم تسلط عليه بعض أهله يسرقون المجلدات مفرقات من عدة كتب قد أتقنها وحررها، فيبيعونها تفاريق، والتى لم تجلد يبيعونها كراريس[٣].

وهذا الخصاف، أبو بكر أحمد بن عمر بن مهير الشيبانى (المتوفى سنة ٢٦١هـ) ، نهبت داره وذهبت بعض كتبه[٤]. ويوسف بن خليل وقف كتبه لكنها تفرقت ونهبت فى حلب سنة ٥٥٨هـ [٥] . وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصارى الخزرجى، أبوالعباس (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ)، اقتنى من الكتب جملة وافرة وى ما نسخ بخطه، وامتحن فيها مرات بضروب من الجوائح كالغرق والنهب بغرناطة فقد كان استصحب إليها من مراكش خمسة أحمال، ولما فصل عنها تركها مع ما صار له منها مدة مقامه بها فأتى عليه النهب فى الكائنة على أهل غرناطة عند قيامهم على لمتونة... وقد تغلب أهل القصبة على أهل البلد وتمكنوا من البلد تمكن عنوة واستباحوه استباحة قهر. وفر

(١) التميمى الدارى ، تقى الدين بن عبدالقادر الغزى، الطبقات السنية فى تراجم الحنفية؛ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو الرياض: دار الرفاعى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ١ : ٣١٩ .

(٢) ابن طولون الصالحى، القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية؛ تحقيق محمد دهمان، ط٢، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ١ : ١٣٨ .

(٣) ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ٧: ٢٣٢ .

(٤) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ١٣: ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٥) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٢٣: ١٥٣ .

معظم الناس من منازلهم فكان ممن فر عن منزله عيال أبى العباس، فنهب ما كان بداره من كتب وغيرها [١]. وإبراهيم بن عمر بن موسى صارم الدين النابتى صاحب الحديدة كان مباركاً فاضلاً . اقتنى من سائر الكتب شيئاً كثيراً، ووقفها بعد موته على أهل الحزم فلم يتم ذلك لاستيلاء زوج ابنته المقبول بن أبى بكر الزيلعى صاحب الحال عليها، وحملها معه إلى قريته اللحية ثم وضعها فى خزانة فلم ينتفع بها أحد. وكانت وفاته فى جمادى الأولى ٨٧٦هجرية[٢] .

وذكر أن نصير الطوسى ,محمد بن محمد بن الحسن (المتوفى سنة ٦٧٢ هـ)، كانت له خزانة كتب ملأها من المخطوطات التى نهبت من بغداد والشام والجزيرة , واجتمع فيها نحو أربعمائة ألف مجلد[٣] .

وممن تعرضت داره للسرقة : عبد الغنى بن محمد الشهير بابن جميل حيث " نهبت داره بما فيها، وأحرقت بظاهرها وخافيها، وأتلف من الكتب نحو سبعة آلاف كتاب ,قلما يوجد مثلها عند أمثاله[٤] " .

وذكر أن على بن إبراهيم بن على الواسطى البغدادى الدمشقى كان يدعى أنه سرق له من الكتب بقدر ألفى مجلدة، وأن جماعة من التجار باعوها بدمشق فلم يجد من يشهد له ولا من ينصره وتمكن اختلاطه، ممن أراد أن يعطيه مالاً ليساعد حاله كان يقول له : أنت ممن سرق كتبى فتريد تبرطلنى . توفى عام ٧٥٠هجرية[٥].

وذكر أنه سرق من خزانة الكتب أشياء، فلما شاع ذلك ظنوا أن الذى أخذها هو إبراهيم بن عباس بن على الشافعى الدمشقى فأخرجوه من المدرسة ظلماً ولم يكن له علم بذلك وشاعت فى دمشق هذه الحكاية والذى أخذها ظهر بعد ذلك[٦].

وربما أدت الظروف الاقتصادية الصعبة إلى قيام بعض الطلبة بسرقة الكتاب

---

(١) محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصارى المراكشى، الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة؛ تحقيق محمد بن شريفة، بيروت: دار الثقافة، د. ت، ١: ٢٢٣ . ٢٢٥ .

(٢) السخاوى، الضوء اللامع ....، ١: ١١٥ .

(٣) خير الدين الزركلى، الأعلام، ٧: ٣٠ .

(٤) الألوسى ، المسك الأذفر فى نشر مزايا القرن الثانى عشر والثالث عشر ؛ تحقيق عبد الله الجبورى، الرياض : دار العلوم ، ١٤٠٢ه / ١٩٨٢م .

(٥) ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٣ : ٧٦-٧٧ .

(٦) أبو الفضل محمد المرادى ، سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر. بيروت : دار البشائر الإسلامية ، د.ت ، ١ : ٨-٩ .

وبيعها، كما حدث فى مصر فى فترة من الفترات . ففى عام ٦٩٤هجرية لجأ بعض الطلاب إلى سرقة الكتب وبيعها مقابل الحصول على الخبز[١].

وهناك العديد من الوسائل والحيل الأخرى التى تتبع لسرقة المخطوطات ومن ذلك:

(١) الاتفاق مع بعض أمناء المكتبات وشراء ذممهم وضمائرهم بالمال ، وتسريب المخطوطات القيمة، ومن ثم بيعها للتجار الذين يقومون بدورهم ببيعها فى بلاد الغرب أو غيرها . وأشد ما بليت به المكتبات من سرقة هى مكتبات الوقف والمساجد ,والمدارس ، والرباطات . فهذه المكتبات كانت تعمها الفوضى وعدم الرقابة الجادة.

(٢) قيام بعض الأشخاص بشراء مخطوطات ليست بذات قيمة علمية ورخيصة الثمن، وإدخالها إلى المكتبات التى تحتوى على مخطوطات ثم يطلب المخطوطات القيمة التى يريد سرقتها ويتظاهر بقراءتها والمطالعة فيها حتى إذا غفلت عين الموظف المراقب فى المكتبة خلع عن الكتاب المسروق غلافه ودس بدلاً عنه المخطوط الذى أحضره وسلمه إلى الموظف وكأنه لم يصنع شيئاً ثم انسل من المكتبة وقد حمل معه ثروة من ثروات بلاده.

(٣) قيام البعض بطلب العديد من المخطوطات فى آنٍ واحد من الموظف المختص بالمكتبة وتكديسها أمامه، ثم مغافلة الموظف ويدسّ إحداها فى عبه أو بعيداً عن القاعة التى يجلس فيها، ثم إعادة المخطوطات إلى مكانها أو إلى الموظف مستغلاً وفرتها فى التلبيس عليه ومسترجعاً إيصالاتها ثم ينسل من المكتبة وقد حصل على ما يريد .

ثالثاً - الإهمال وسوء الاستعمال:

أدى إهمال بعض المشرفين على خزائن الكتب والعاملين فيها إلى فقدان الكثير من مقتنياتها وتدهور مجموعاتها .

ومن الأمثلة على ذلك ما وقع من خازنى المكتبة المحمودية السراج عمر ، والفخر عثمان إذ أساء الأول، وعندما اكتشف أمره عزل، وعقبه جاء الثانى وكان منضبطاً ، ولكنه كان مجاملاً فيما يبدو، ففقد من المكتبة أثناء إشرافه عليها ما يقرب من

(١) المقريزى ، الخطط المقريزية ، ٢ : ٣٦٦ .

أربعمائة مجلد، وهى عشر ما كان موجوداً فى هذه المكتبة، وكانت من أنفس الكتب الموجودة فى القاهرة، جمعها القاضى برهان الدين بن جماعة طول عمره[١]. فعزل أيضاً وغرم قيمة المفقود من الكتب[٢] .

وتعرضت مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بالمدينة المنورة إلى النهب والسلب نتيجة إدارات متعاقبة مهملة ومتهاونة مما أدى إلى ضياع جملة من المخطوطات النفيسة والنادرة .

وفى هذا السياق يقول السباعى: وفى بعض الحالات كان الإهمال واللامبالاة يدب بالمكتبات فور إنشائها، وكانت النتيجة تحول المخطوطات النادرة والنفيسة إلى غذاء للديدان والحشرات، أو أن تتلف تدريجياً من فعل التراب والغبار [٣].

وعن الإهمال والجهل بقيمة المخطوطات وما يسببه ذلك من ضياع الكثير من المخطوطات العربية والإسلامية يقول أحد أمناء المكتبات : إن كثيراً من المخطوطات قد تلف أو فقد بسبب جهل حافظى الكتب بقيمتها ، وعدم مبالاتهم بحفظها ، وإن بعضاً منها قد تسرب إلى الخارج بطريق البيع أو غيره ، والدليل على ذلك أنه يوجد فى مكتبة فيينا مخطوط نسخ فى مدرسة الغازى خسرو بك سنة ١٠٤٣هـ. كما توجد فى مكتبة جامعة براتسلافا بتشيكوسلوفاكيا مكتبة شرقية قيمة نقلت بأسرها من بلادنا وهى مكتبة المستشرق الأديب الشاعر البوسنوى الدكتور صفوت بك باشا غيج (المتوفى سنة١٩٣٤م فى سراييفو) وهى زاخرة بالمخطوطات، ومن بينها ما ألفه علماء بوسنة وهرسك، وتكون اليوم أعظم واهم مجموعة للكتب الشرقية فى تلك البلاد [٤] .

وتدل أختام الوقف والتملك الموجودة فى المخطوطات العربية الإسلامية - التى تعرض للبيع بواسطة التجار هنا وهناك - على التسيب والإهمال وعدم الأمانة من قبل المشرفين على المكتبات التى تسربت منها هذه المخطوطات.

وقد يساهم الإنسان أحياناً فى التلف الذى يقع على المخطوطات، إما لعدم وعيه وإدراكه لأهمية المخطوطات، أو لتهاونه واستهتاره أثناء استعمال وتداول المخطوط من قِبَل بعض المفهرسين أو الباحثين أو ملاك المخطوطات.

---

(١) السخاوى، الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر؛ تحقيق حامد عبد المجيد وطه الزينى. القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ٢: ٦٠٩-٦١٠ .

(٢) السخاوى ، الضوء اللامع ... ، ٥ : ١٤٣-١٤٤ .

(٣) محمد مكى السباعى، مكتبات المساجد . دراسة تاريخية، ص١٥٨ .

(٤) انظر فهرس المخطوطات العربية والتركية والفارسية لمكتبة جامعة براتسلافيا من سنة ١٩٦١م .

فالأفراد الذين تتداول أيديهم المخطوطات الأصلية كل يوم لهم أثر كبير فى الحفاظ عليها. ولعلنا نحن البشر من أكثر عوامل التدهور للمخطوطات، بل ونكون فى حالات كثيرة أشد تسبباً فى الخراب والإتلاف، إذ هناك الكثير من المخطوطات ظلت دون أن تمسها يد، فبقيت سليمة طيلة قرون عدة ليتم القضاء عليها بعد ذلك وخلال عقد واحد فقط من السنين بسبب طريقة التعامل الخاطئة التى يتبعها البعض منا ممن يتعاملون بشكل يومى مع التراث المخطوط.

وهذه بعض الأمثلة التى توضح التلف الناتج عن سوء استعمال المخطوطات:

(١) البلل : حيث تتعرض بعض المخطوطات للبلل نتيجة عرق الإنسان مما يؤدى إلى إتلاف وضياع نصوصها . فقد ذكرت بعض المصادر " أن الخطيب التبريزى (المتوفى سنة ٥٠٢هـ) سافر ليلقى أبا العلاء المعرى ، ويقرأ عليه نسخة من كتاب (التهذيب فى اللغة) للأزهرى ، فنفذ العرق من ظهره عليها ، فأثر فيها البلل فى أثناء سفره . وهذه النسخة فى بعض المكتبات الموقوفة ببغداد إذا رآها من لايعرف خبرها ظن أنها غريقة، وليس بها سوى عرق الخطيب[١] " الذى جعلها على هذه الحال.

(٢) إضافة علامات أثناء القراءة والاطلاع ، وذلك باستعمال أقلام جافة يصعب إزالتها ويؤدى هذا إلى تشويه النص .

(٣) ثنى حواف بعض أوراق المخطوطات للدلالة على موضع انتهاء القراءة مما يساعد على كسر هذه الحواف وفقدانها من المخطوط.

(٤) الضغط على كعوب المخطوطات أثناء تصويرها للحصول على صور واضحة وكاملة للصفحات وهذا يؤدى بطبيعة الحال إلى تفكك الملازم وتلف كعوب المخطوطات .

(٥) تدخين العاملين فى مجال الفهرسة ، أو الباحثين أو القراء يؤدى إلى زيادة نسبة الحموضة فى أوراق المخطوطات وبالتالى التسبب فى هشاشة الأوراق ، وتكسرها بسهولة .

(٦) جهل أمناء المخازن والمستودعات بطرق حفظ المخطوطات ووضعها على الأرفف المناسبة لها بطرق سليمة. فالمخطوطات ذات الجلود اللينة إذا تم وضعها على الأرفف بطريقة رأسية فإن هذا يؤدى إلى تقوسها وتلفها . كما أن إهمال أمناء

(١) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ٢٠: ٢٦-٢٧ .

مستودعات المخطوطات وخزائنها لضبط درجات التكييف المناسبة ودرجات الرطوبة ، والإضاءة يؤدى إلى زيادة نسبة الإصابة .

إن التعامل مع المخطوطات يتطلب الحذر الشديد وأخذ الحيطة فقد يسىء البعض ممن يتعامل مع المخطوطات من مفهرسين وباحثين ومحققين ومصورين ومجلدين إلى هذا التراث إساءة بالغة.

ومن صور الإساءة للمخطوطات: القيام بتصفح أوراق المخطوطات وكأنها كتب مطبوعة حتى إذا رأى بعض صفحات المخطوطة ملتصقة ببعضها البعض - نتيجة الرطوبة والحرارة - قام بفكها عنوة وبالقوة مما يترتب عليه - فى الغالب - تمزق الأوراق، وإزالة أجزاء من النص.

وفى بعض الأحيان يقوم بعض المتصفحين لأوراق المخطوطات من مفهرسين ومحققين ومسجلين بغمس أصابعهم فى وعاء يحتوى على قطعة أسفنجية مشبعة بالماء من أجل تسهيل مهمة تقليب الصفحات وفك الملتصق منها بعضه مع بعض، مما يترتب عليه زوال بعض الكلمات، أو العبارات، أو الزخرفة والتذهيب بسبب بلل الأصابع، إذ إن هناك بعض الأحبار تتحلل بمجرد لمسها بماء أو نحو ذلك، وبعض الأحبار ثابتة لا تتأثر بذلك .

وعلى جميع الأحوال، فإن التعامل مع المخطوطات الأصلية بشكل دائم ومباشر وإتاحتها لكل باحث، والقيام بإرسالها إلى قسم التصوير بين حين وآخر، كل ذلك يؤدى إلى إتلاف أوراقها، والقضاء عليها فى نهاية الأمر .

لذلك ينبغى حفظ المخطوطات بعد معالجتها فى خزائن خاصة تناسبها ، وفى جو من الرطوبة والحرارة المناسبة ، مع تصويرها على ميكروفيلم أو ميكروفيش، أو قرص إلكترونى من أجل خدمة الباحثين و الدارسين من خلال تمكينهم من الاطلاع على المخطوطات المصورة، وتزويدهم بنسخ مصورة، وعدم تمكينهم من الاطلاع على الأصول إلا فى حالات نادرة تستدعى ذلك .

ومن الأمور الأخرى التى تسىء إلى المخطوطات القيام بوضعها على الرفوف ملصوقة بعضها مع بعض، لأن هذا يؤدى إلى نمو الفطريات أكثر لعدم وجود فراغ للتهوية، لذلك يجب وضع المخطوطات على الرفوف بطريقة تضمن سلامتها ، بحيث لاتزدحم الرفوف بالمخطوطات لتجنب وقوع أى ضرر أو أذى بمخطوط ما، ومن ناحية أخرى يجب ألا تكون المخطوطات قليلة على الرف؛ لأن بعضها سيستند على البعض

الآخر؛ مما يؤدى إلى الإضرار بأغلفة الكتب، ويفضل وضع المخطوطات على الرفوف وفقاً لأحجامها.

رابعًا- المستشرقون وسرقة التراث:

بالرغم من أن بعض المستشرقين حافظوا على التراث العربى الإسلامى المخطوط الذى نهب فى ظل ظروف قاسية مرت بها البلاد العربية الإسلامية من غزو واحتلال وفتن داخلية وحروب ونزاعات همجية وإهمال وتسيب وغير ذلك من الأسباب الأخرى. بالرغم من كل ذلك فإن هذا لا يعنى أن المسلمين كانوا وما زالوا عاجزين عن حفظ تراثهم المخطوط الذى نهب وسلب عنوة. بل شهد لهم التاريخ من قبل ـ العدو قبل الصديق ـ بمقدرتهم على حفظ تراث الحضارات والمحافظة عليه فى الوقت الذى شهدت فيه أوروبا محاكم التفتيش وإعدام العلماء وحرق الكتب العلمية.

إن المسلمين الذين تمكنوا فى الماضى من المحافظة على الموروث الحضارى للأمم السابقة ـ والذى ضاعت أصوله من أصحابه الأقدمين ـ القادرون اليوم على حفظ تراثهم والمحافظة عليه وإتاحته لجميع الباحثين وطلاب العلم الذين حرموا فى كثير من الأحيان من الاطلاع عليه.

وعليه فينبغى علينا حكاماً ومحكومين أن نطالب بإعادة هذا التراث إلى موطنه الأصلى هذا التراث الذى نهب وسلب ظلماً وعدواناً بغير وجه حق.

لقد كان للمستشرقين أثر بارز فى نهب الكثير من التراث العربى الإسلامى المخطوط ومما ساعدهم فى تحقيق ذلك:

(١) التيسيرات التى وفرها المستعمرون الأوروبيون لهؤلاء المستشرقين .

(٢) الجهل- الذى كانت تعيشه أمتنا - بقيمة تراثها المخطوط ناهيك عن الحاجة المادية والفقر.

وقد أدى هذا وغيره من الأسباب الأخرى إلى تمكن المستشرقين من نهب آلاف المخطوطات من شتى ربوع العالم الإسلامى، ومن ثم تهريبها إلى أوروبا وأمريكا .

بالإضافة إلى الحملات التبشيرية الاستعمارية التى تسترت تحت غطاء التبشير والعلم، وحملت فى طيات دعوتها ما حملت من أطماع ونهب لتراثنا .

لقد باع بعض المسلمين المخطوطات بثمن بخس لهواة جمع المخطوطات الأجانب دون أن يكون هذا البعض على دراية ووعى بأهمية هذه المخطوطات. بل إن بعض أبناء

العالم العربى والإسلامى يبيعون لوكلاء المكتبات الأوروبية المخطوطات.

ولقد تسلطت أيدى الأوروبيين على مخطوطاتنا العربية بالسلب والنهب والسرقة والاحتيال حتى اكتظت بها مكتبات لندن وباريس وبرلين وغيرها من المدن الأوروبية الأخرى على حين أقفرت منها مكتبات العرب أنفسهم.

واستطاع الغرب فى فترة من فترات الضعف التى أصابت المسلمين أن يستولى على الكثير من التراث، وينقله إلى بلاده بغية الاستفادة منه، وعكف عليه رجال منهم فكانت نتيجة ذلك التطور العظيم الذى نلمسه فى كثير من ميادين الحياة عندهم. وبمقدار تقدم الغرب لاقتباسه من تلك المعارف واستفادته من تلك الكنوز تخلف المسلمون لإهمالهم هذه الثروة التى كانت بين أيديهم. يقول د. محمد عيسى صالحية: لقد أحصينا عدد المستشرقين الذين اشتغلوا بالتراث العربى فى القرن الأخير، فكانوا أكثر من ٤٨٣ مستشرقًا، وبعيداً عما كتبه إدوارد سعيد فى كتابه "الاستشراق" والذى ناقش فيه الأفكار المسبقة التى حاول كل مستشرق إسقاطها على الفكر العربى. ونحن مع تقديرنا لجهود الفئة التى ما كان قصدها إلا الاغتراف من التراث العربى وتطعيم الفكر الغربى بمآثر ومنجزات الفكر العربى الإسلامى فى مجال العلوم والفنون، غير أن غالبية المستشرقين استغلوا فرصة تواجدهم فى الوطن العربى لترحيل الآثار العربية والتراث العربى بالشراء تارة والإغراء تارة أخرى، وبالدبلوماسية... لقد اشتغل العديد من ضباط وجنود الأسطول البريطانى بترحيل الآثار والتراث العربى، وكثيراً ما خاضوا معارك ضد الأهالى فى محاولة من البريطانيين لانتزاع الآثار الموجودة فى مناطق أهل البلاد المستعمرة.

ولقد لعبت الدبلوماسية وما تزال تقوم بدور نشط فى مجال تغريب التراث العربى الإسلامى. ففى سنة ١٨٤٠م وزعت رسالة من بعض المستشرقين جاء بعنوانها "فهرس الكتب التى نرغب أن نبتاعها والمسائل التى توضح جنس الكتب التى نرغب فى الحصول عليها ، إنما نجهل أسماءهما والمسائل التى فى علم الحرب" والقصد من ذلك رغبة المستشرقين فى معرفة كل ما يتعلق بالحروب والجيوش وأدوات الحرب وصناعة السفن والمراكب الحربية ومراسيم الخلافة ومظاهر الحضارة الإسلامية. وتقع الرسالة فى ١٦٠ صفحة وما زالت محفوظة فى دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم ٤٠٣٩ ج والمكتبة البريطانية.

وقد اشتدت عملية تغريب التراث العربى ونفيه من موطنه بعد عام ١٨٤٠م، وزاد نشاط معظم المستشرقين بالإضافة إلى نشاط البعثات الأوروبية التى رافقت الحملات الصليبية فى المشرق والمغرب وأخذت تجوب البلاد العربية والإسلامية بحثاً عن المخطوطات، وقد ساعدهم فى ذلك جهل الناس فى ذلك الوقت بأهميتها فباعوها بأبخس الأثمان، أو استبدلوا بها أدوات منزلية. وكانت جولاتهم تتم على المنازل ومكتبات الأديرة، ونقل معظم هذه المخطوطات إلى أوروبا .

ومن نماذج تسرب المخطوطات العربية إلى البلاد الأوروبية ما ذكره السيد محب الدين الخطيب عن الشيخ أمين بن حسن الحلوانى المدنى المتوفى فى بومبى بالهند عام ١٣١٦هجرية فقد كان عالماً مهتماً بالمخطوطات وله صلات قوية بالعلماء فى مصر والهند وأوروبا، وقد رحل إلى أوروبا لبيع الكتب، ووصل إلى أمستردام عام ١٣٠١هـ بمجموعة من المخطوطات العربية فاشترت مكتبة جامعة لايدن الغنية بنفائس مخطوطاتها العربية قسماً منها وذهب القسم الآخر إلى مكتبة جامعة برنستون بأمريكا[١].

إن جهود المستشرقين الذين لم نراقبهم قد فعلت فعلها بتغريب هذا التراث، فعلى سبيل المثال طاف المستشرق الأيرلندى الفريد شيستر بتى - أحد هواة جمع المخطوطات فى القرن العشرين - واستطاع أن يجمع آلاف المخطوطات العربية والإسلامية من خلال زياراته الكثيرة للأقطار العربية خاصة فى مصر حيث استقر به المقام زمناً معيناً تمكن خلالها من جمع أكثر من أربعة آلاف مخطوطة عربية ونقلها إلى بلده فأكرمته حكومته وسمت مكتبة مدينة دبلن باسمه.

كذلك قام المستشرق السويدى الكونت كارلو لاندبيرج الذى كان سفيراً فى مصر وأسمى نفسه (عمر السويدى)، قام بجمع أكثر من ٦٦٤ مخطوطة أغلبها من اليمن وهى الآن فى ليدن [٢].

ولقد بدأت محاولات السيطرة الأوروبية الحديثة على التراث العربى الإسلامى، وفق تخطيط هادف ,منذ نهايات القرن الثامن عشر الميلادى ,عندما انتشرت

(١) محب الدين الخطيب، " أمين بن حسن الحلوانى المدنى "، المنهل، عدد ١٠، (ذو الحجة ١٣٧٢هـ/ أغسطس ١٩٥٣م)، ص ص ٥٤٦ - ٥٤٨ .

(٢) عبد الكريم حبيب، " المخطوط العربى "، دمشق: مجلة جامعة البعث، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، العدد السادس، ص ٢٥٨ .

مجموعات من الباحثين والمتخصصين المستشرقين الأوروبيين فى ربوع العالم العربى الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ينقبون عن المخطوطات.

وفى الفترة التى قضاها الفرنسيون فى مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م) تمكن القائد الفرنسى "نابليون بونابرت" من جمع مئات المخطوطات العربية التى تم ضمها إلى رصيد المكتبة الوطنية فى باريس، وقام بالاستيلاء على الكثير من المخطوطات من الهند والجمهوريات الإسلامية فى جنوب الاتحاد السوفياتى (سابقاً) وإيران، والعراق، ودمشق، القدس، وعسقلان، واليمن، والقيروان، وقسنطينة، وفاس وغيرها من المدن. وكان يهدف من وراء ذلك إلى إثراء النشاط الفكرى والعلمى والأدبى فى أوروبا، وفى الوقت نفسه السيطرة على اتجاهات الفكر الإسلامى الحديث بما يخدم مصالحهم وأطماعهم.

وضمت مكتبات فرنسا آلاف المخطوطات العربية الإسلامية التى تم نهبها وسلبها من البلاد العربية والإسلامية عن طريق وكلاء كانوا يجوبون المدن العربية والإسلامية مثل : إستانبول، والقاهرة، ودمشق، وغيرها. فقد أرسل كولبير Colbert وزير فرنسا الأول وكلاء إلى الشرق وتمكنوا من جلب مئات المخطوطات العربية .

وتمكن قنصل فرنسا Jean-Lauis Asslin de chervile (1772-1822) من الحصول على مجموعة ضخمة من المخطوطات النادرة تقدر ب ١٥١٥ مخطوطة يعود بعضها إلى القرن الهجرى الأول.

ثم توالت عمليات النهب والسلب عن طريق البعثات الفرنسية فى مصر بين سنتى ١٨٨٧ و١٨٩٠م بالإضافة إلى مجموعة المستشرق شارل شيفر (Charles Shefer 1820- 1898) التى تقدر بـ ١١٦٠ عنواناً والتى جمعها من مصر وسوريا وإيران والهند.

وهناك الكثير من المخطوطات العربية الإسلامية فى المكتبة الوطنية الفرنسية التى ترقى إلى عهد الملك الفرنسى فرانسوا الأول، الذى أمر بنقل الخزانة الملكية من مدينة بلوا (Blois)إلى فانتبلو بضواحى باريس خلال النصف الأول من القرن السادس عشر١٥٤٤م. وحسب أول قائمة لهذه المكتبة كان عدد المخطوطات الشرقية أربعين مخطوطاً لا يتجاوز عدد العربية منها الستة. وفى عهد الملك لويس الرابع عشر ازداد عدد المخطوطات الشرقية بسبب انفتاح هذا الملك على الدول الشرقية وربط العلاقات الطيبة معها . ومعظم هذه المخطوطات كان من شراء البعثات التى كان

يرسلها إلى الشرق أو من هدايا العلماء والسفراء والقناصلة والرحالة سواء للملك أو لوزرائه وعلى الأخص منهم ريشليو Richaliea ومازران Mazarin وكولبير Colbert.

وبعد الثورة الفرنسية ازداد رصيد الخزانة من المخطوطات التى صودرت من مكتبات الأديرة والكنائس والمعاهد الدينية.

وكذلك نقل الإيطاليون بعض المخطوطات العربية وأرسلوا البعثات لاقتناء ما يناسبهم وقد جمع رجال الكنيسة كثيراً من المؤلفات العربية فى مكتبة الفاتيكان فى روما[١].

وتمكن الألمان من جمع آلاف المخطوطات العربية وأودعوها فى مكتبة برلين، حيث قام ألورد Ahlwardtبإصدار فهرس لها يقع فى عشرة مجلدات.

أما فى بريطانيا، فنجد آلاف المخطوطات العربية الإسلامية التى تم جمعها ما بين عام ١٧٥٣ ـ ١٨٠١م موجودة فى مكتبة البودليانا بأكسفورد، ومكتبة جامعة كمبردج ، علاوة على المخطوطات العربية الموجودة بمكتبة المتحف البريطانى بلندن .

لقد تمكن هؤلاء الصيادون القادمون من الدول الأوروبية وأمريكا من اقتناص المخطوطات النادرة فى مختلف فنون المعرفة؛ ومن ثم نقلها وإيداعها فى مكتباتهم خصوصاً المكتبة الوطنية فى باريس، والمتحف البريطانى، ومكتبة برلين، وغيرها من المكتبات الأخرى. وذكر أن أحد خريجى جامعة برنستون بأمريكا أهدى مكتبة الجامعة ستة آلاف مخطوطة عربية ، كانت بحوزة مستشرق إنجليزى[٢].

وبالإضافة إلى النشاط المحموم الذى قام به بعض المستشرقين والرحالة والسفراء والقناصل والبعثات الأوروبية من نهب للتراث العربى الإسلامى المخطوط بطريقة أو بأخرى ، ومن ثم نقله إلى البلاد الأوروبية، نجد أن أبناء بنى جلدتنا يقومون بهذه المهمة على خير وجه ومن بين هؤلاء بعض تجار المخطوطات العرب الذين لا همَّ لهم إلا الحصول على الأموال بشتى الطرق . فمنذ مطلع القرن الحادى عشر الهجرى ومع تدفق العلماء الأوروبيين على البلاد العربية الإسلامية بحثاً عن المخطوطات أخذ

---

(١) خليل محمود، " المكتبات الإسلامية بين كيد الأعداء وجهل العامة "، الرياض: مجلة الفيصل، عدد ٢١١، ص ٦٢ .

(٢) عبد المجيد دياب، تحقيق التراث العربى منهجه وتطوره، القاهرة : منشورات سمير أبو داوود ، ١٩٨٣م ، ص١٨٧ .

هؤلاء التجار على عاتقهم مساعدة هؤلاء الأوروبيين وتسهيل مهمتهم فى تحقيق رغباتهم وأطماعهم.

وحول دور التجار وأثرهم فى ضياع التراث العربى الإسلامى المخطوط يقول شعبان خليفة: لعب التجار المحليون دوراً مشيناً فى ضياع الكثير من المخطوطات حيث قاموا ببذل كافة جهودهم لتلبية رغبات التجار الأجانب وغيرهم من المستشرقين الذين سعوا للحصول على المخطوطات العربية والإسلامية خاصة المتعلقة بالعلوم البحتية والتطبيقية فخرج عن طريق الشراء جانب كبير من المخطوطات المهمة بثمن بخس[١].

ويقول أحد الكتّاب: " وإننا منذ زمن الصبا حتى الآن نرى تجار الكتب المخطوطة يترددون إلى حلب ويملأون من مكتباتها الصناديق الكثيرة، عدا ما نراه من سواح الغرب وسماسرة المستشرقين الذين يختطفون الكتب النفيسة من أيدى طائفة من البسطاء لايفرقون بين الطين والعجين، يشترونها منهم بأبخس الأثمان [٢].

لقد تعرض تراثنا العربى المخطوط لأخطر موجات التهجير على أيدى أبناء الدين الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية ، الذين أخذوا يرحلون نفائس المخطوطات خارج حدود بلادنا العربية وتحت مسميات عديدة منها: التداول العلمى، وأن الإسلام لايحرم التجارة وغير ذلك من الذرائع التى يتذرعون بها .

ومما يؤسف له أنه فى الوقت الذى أصدرت فيه معظم دول العالم قوانين تنظم انتقال كنوزها وآثارها نجد بلادنا العربية مازالت إلى يومنا هذا بلا قرار يمنع انتقال المخطوطات أو يحد من ذلك.

لقد كان لبعض التجار العرب دورهم فى تسهيل مهمة إنجاح تغريب التراث العربى الإسلامى المخطوط وترحيله إلى بلاد الغرب مقابل دريهمات معدودة[٣]. وليس الأمر بسر، فإن غالبية المكتبات تفرد صفحات فى مقدمات فهارسها، يمكن للباحث أن يطلع عليها بيسر، وتؤرخ لكيفية اقتنائها لنفائس المخطوطات وتبرز أسماء وعناوين واضحة حول ذلك فى مصر واليمن والشام والمغرب وسوريا ولبنان وفلسطين وتركيا والحجاز وغيرها من بلاد الإسلام، حيث عمل البعض تاجراً أو موظفاً لدى أحد المستشرقين أو

(١) شعبان خليفة، الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى، ص ٢٥٧ .

(٢) عبد الرحمن الكيلانى، " المخطوطات الطبية بحلب: دراسة موجزة للمكتبات الموجودة فى حلب وما فيها من المخطوطات الطبية، دمشق: مجلة المجمع العلمى العربى، (أكتوبر ١٩٧١م)، ع ٤، مج ٤٦، ص ٦٧٣ .

(٣) محمد عيسى صالحية ، تغريب التراث العربى بين الدبلوماسية والتجارة. عمان، دار الحداثة ، ١٩٨٥م، ط٢ ، ص ٩ وما بعدها .

عند إحدى السفارات ليقتصر عمله على البحث عن التراث، ومن ثم الحصول عليه ونفيه من بلده، حتى الفقرات المتميزة من كتاب أو الصور النادرة منه إن كان فى محفوظات مكتبة لا يمكن الوصول إليها، احتيل فى نزعها من المخطوط وهربت من البلد، فإن كل مخطوط أو أثر هرب إلى العالم الأجنبى يحمل فى داخله سراً ينوء به كاهله، تعبر عن نبرات الحسرة المكتبية التى تتفجر من الباحث العربى حين يرى آثار ومخطوطات بلده أو قريته حبيسة الخزائن والأرشيف الأجنبية [١].

ومما يؤسف عليه لجوء بعض أبناء العالم العربى والإسلامى إلى بيع المخطوطات لوكلاء المكتبات الأوروبية[٢] حتى أصبحت مكتبات أوروبا وأمريكا الآن تضم نحو مائة ألف مخطوط عربى على أقل تقدير سوى ما فى مكتبات المستشرقين وأساتذة الجامعات وما فى أيدى الناس ممن لهم عناية واهتمام بجمع المخطوطات العربية والإسلامية ، بالإضافة إلى الآثار الشرقية.

(١) محمد عيسى صالحية ، تغريب التراث العربى بين الدبلوماسية والتجارة ، ص ص١٠ ـ ١١ .

(٢) محمد عبد الرحمن الربيع، " التعاون والتنسيق بين الجامعات السعودية فى ميدان المخطوطات " الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – اللقاء الأول للمكتبتين، ١٤٠٠هـ ، ص١٥ .

المبحث الرابع

الغزو التترى والاستعمار الأوروبى

لم يكد القرن السادس والسابع الهجريان أن ينتهيا حتى تعرضت الأمة العربية الإسلامية لحملتى غزو ظالمتين يقودهما من الشرق الغزو التترى الغادر ومن الغرب الصليبية الحاقدة وهذه الغزوات لم ترع للإنسان حرمة ولم تعرف للبشر كرامة ، فقد استباحت المحارم ,وقتلت الفكر، وأحرقت جهود العلماء المتمثلة فى الثروات الفكرية الهائلة المدونة فى مئات الألوف من المخطوطات .

وسوف نتناول فى هذا المبحث أهم هذه الغزوات وهى:

أولاً - الغزو التترى :

لقد أجمعت المصادر التاريخية القديمة منها والحديثة على قيام التتار بقيادة جنكيزخان، وهولاكو، وتيمورلنك بغزو الشرق الإسلامى حيث امتدت سلطة التتار من حدود الهند شرقاً إلى حدود سوريا غرباً، وتمكنوا من اكتساح المملكة الإسلامية، وكانوا إذا فتحوا بلداً قتلوا أهله، ونهبوا ما فيه، وأحرقوا ما لا يستطيعون حمله، وهدموا المنازل، وأحرقوا المكتبات مستخدمين المخطوطات وقوداً لهم.

ومن أمثلة ما جرى أن المغول دخلوا بخارى الزاهرة التى كان يزيد عدد سكانها على أربعمائة ألف فتركوها أنقاضاً لا حياة فيها، ولما دخلوا بغداد قتلوا من أهلها ثمانمائة ألف نفس وخربوها الخراب العظيم. يقول ابن خلدون: " إنه ألقيت وقت فتح بغداد كتب العلم التى كانت فى خزائنها بدجله " [١].

وفى موضع آخر ذكر ابن خلدون فى تاريخه: أن المغول " استولوا من قصور الخلافة وذخائرها على مالا يبلغه الوصف، ولا يحصره الضبط والعدّ. وألقيت كتب العلم التى كانت بخزائنهم جميعاً فى دجلة، وكانت شيئاً لا يعبر عنه ,مقابله - فى زعمهم- بما فعله المسلمون لأول الفتح فى كتب الفرس وعلومهم [٢].

وداهم التتار أيضاً مدينة ساوة التى تقع بين الرى وهمذان وقاموا بتخريب وقتل كل

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون. بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، ١٩٧٩م، ٥: ٥٤٣ .

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٢: ١١٠٦ .

من فيها، ولم يتركوا أحداً البتة، وكان بها دار كتب لم يكن فى الدنيا أعظم منها قاموا بإحراقها[١].

يقول محمد كرد على: " وقد طغى المغول على ديار الإسلام تحت راية جنكيز، أعظم فاتح عرفه التاريخ، وأعظم مخرّب قام فى الأرض، خرب أقطاراً وأمصاراً، وما عرف له من غرض فى ذلك إلا حب التخريب، ولذلك قالوا ما دهى الإسلام بمثله.

وقد امتدت مملكة جنكيز من بحر الصين إلى البحر الأسود واستولى على ما وراء النهر وخوارزم وخراسان وهراة وقندهار وملتان وأفنى أهلها، وقتل كل من كان فيها من كبير وصغير، ثم خربها حتى ألحقها بالأرض، وتركها بلقعاً ينعق الغراب فى ربوعها، وأتى على ما بناه العرب فى ستة قرون فى غزنة ونيسابور وشيراز وبخارى وسمرقند وغيرها من البلدان، وكانت من أعظم عواصم العلم وحواضر الإسلام، وبمن قام فيها من العلماء والفضلاء تمت آيات باهرة من الحضارة ممزوجة بالحضارة الفارسية، فقضى المغول على كل ذلك حتى إن بعض المدن الكبرى هلك سكانها كلهم وخربت برمتها، وكم من خزائن كتب أحرقت، ومن مدارس علم قوضت، ومن مراصد فلكيه دمرت، وكان أهم سبب فى فقدان أكثر ما ألفه علماء المسلمين وحكماؤهم من التصانيف ما أتاه جنكيز وأولاده وأحفاده [٢].

ومن أشهر حوادث إتلاف الكتب والقضاء عليها مع سبق الإصرار على فعل ذلك ما قام به التتار عند سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ه، فقد ذكر بعض المؤرخين أن المغول " رموا كتب مدارس بغداد فى بحر الفرات ,فكانت ـ لكثرتها ـ جسراً ، يمرون عليها ركاباً ومشاة . وتغير لون الماء بمداد الكتابة إلى السواد [٣] ".

وذكر أن هولاكو أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة. هذا عدا ما نهب من الأصقاع التى احتلها، فملأ فى مراغة خزانة عظيمة من الأسفار نهبها من بغداد والشام والجزيرة، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد "[٤].

---

(١) ياقوت الحموى، معجم البلدان: تحقيق محمد أمين الخانجى، (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، ٥: ٢١ .

(٢) محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية، ط ٣. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨م، ١: ٣٢٠ ـ ٣٢١ .

(٣) قطب الدين النهروالى، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام. طبعة وستنفلد ليبسك، ١٨٥٢م، ص ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

(٤) محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية، ١: ٣٢٣ .

ويعتقد أن مثل هذه الأخبار فيها مبالغة؛ إذ يصعب على الإنسان أن يتصور عدم قدرة النهر من جرف الكتب مهما بلغت أعدادها لأنها تذوب فى الماء ولا تصمد لكى تصبح جسراً للمرور عليها.

وبالرغم من ذلك فقد أجمعت المصادر على قيام الجيش المغولى بقيادة " هولاكو " بتدمير ما لا يحصى من الكتب فى بخارى ونيسابور والرى وأصفهان، وبغداد عاصمة الدولة الإسلامية.

يقول القلقشندى: " ويقال إن أعظم خزائن الكتب فى الإسلام ثلاث خزائن: إحداها خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة، ولايقوم عليه نفاسة ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد، فذهبت خزانة كتبهم فيما ذهب، وذهبت معالمها وأعفيت آثارها " (١).

ويقول فيليب دى طرازى: " تمادى هولاكو حفيد جنكيز خان التترى فى العسف والتخريب والتدمير أثناء زحفه إلى بغداد وتدويخها، فلم يبق فيها أثراً للمخطوطات القديمة، والذخائر الثمينة التى كانت مكنوزة منذ قرون فى قصور الخلفاء، وبيوتات الأمراء.

واقترف مثل تلك الفظائع فى " دار الحكمة " وفى غيرها من خزائن الكتب العامة والخاصة فألقى بعضها فى نهر دجلة، فسد مجراه، وجاز الناس على الكتب من جانب كأنها جسر معقود، وبعضها الآخر استنفد عزم النار الآكلة مدة غير قصيرة من الزمن حتى قضت قضاءها فيه " (٢).

وهكذا دمر أكبر مركز ثقافى فى العالم العربى الإسلامى بعد أن أعطى الكثير، وكان قبلة العلماء وطلاب العلم لعشرات السنين.

وكذلك فعل التتار على يد هولاكو الذى تمكن من تدمير معالم الحضارة والنتاج الفكرى المكتوب والموجود فى خزائن الكتب ومعاهد التعليم وقصور الخلفاء والأمراء حيث محى كل أثر لها من الوجود .

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ١: ٤٦٦ .

(٢) فيليب دى طرازى، خزائن الكتب العربية فى الخافقين. بيروت: وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، ١٩٤٧م، ٣: ١٠٢٩ .

وذكر ياقوت الحموى أن المغول لم يتركوا مكتبة فى طريقهم أثناء الغزو إلا أحرقوها وقد ذكر فى كتابه عشر مكتبات دمرت كما حدث فى مرو وساوه وغيرهما .

وعندما اجتاح تيمور لنك المتوفى سنة ٨٠٨هـ بلاد المسلمين عبث بكل ما وجده من آثار حضارية فطالت يده أكثر المكتبات التى وجدها ، وقام بإحراق ونهب آلاف الكتب المخطوطة فى بلاد العراق والشام .

وهكذا نجد أن الغزو التترى لبغداد كان من أشد المآسى التى ألمت بأمتنا العربية والإسلامية . حيث ارتكبوا الكثير من الفظائع والأعمال الهمجية ضد الإنسانية منها : تخريب المكتبات وعلى رأسها مكتبة بيت الحكمة التى احتوت من الكتب ما لا يحصى كثرة - كما ذكر القلقشندى - ولا يقوم عليه نفاسة .

وفى عام ٦٩٩هجرية اجتاح التتار مدينة دمشق وخربوا أماكن ومعالم عديدة ، من بينها دار الحديث الأشرفية التى كانت تحتوى على كتب نفيسة أوقفها كثير من العلماء كالسبكى والنووى، ونهبوا كتباً كثيرة من الرباط الناصرى والضيائية وخزانة ابن البزورى ، وصار الجند يبيعونها بأبخس الأثمان وهى مكتوب عليها الوقفية [١].

وقد اشتهرت سوريا بمساجدها الكثيرة فى إبان التمدن الإسلامى وكانت هذه المساجد تضم خزائن كتب موقوفة للدرس والمطالعة. ومن أشهر هذه المساجد الجامع الأموى الذى احتوى على مكتبة ضمت نحو خمسة آلاف مجلد. هذه الخزائن تعرضت أثناء الغزو التترى للنهب والسلب .

وكانت دمشق حافلة بخزائن الكتب القديمة ، ومن أهم هذه الخزائن : دار الكتب الظاهرية التى ألحقت بالمدرسة التى أنشأها الملك الظاهر بيبرس المتوفى سنة ٦٧٦ هجرية بدمشق . وقد احتوت المكتبة على مخطوطات كثيرة نادرة وقيمة بلغ عدد مجلداتها ١١٤٢٥ مجلداً تضم ما بين خمسين إلى ستين ألف كتاب .

وقد أصيبت هذه المكتبة بنكبة الطاغية تيمور لنك سنة ٨٠٣ هجرية عندما اجتاح مدينة دمشق حيث عبث بكل ما وجده، وأحرق المكتبات والدور والمساجد، بل ترك دمشق تحترق ثلاثة أيام بلياليها، حتى صارت أطلالاً بعد ازدهار وجمال، وقد أقام هذا الطاغية بجيشه فى دمشق ثمانين يوماً عاث فيها فساداً، ولم يبق فيها حجر على حجر وكانت وفاته سنة ٨١٥هـ [٢].

---

(١) تقى الدين الهاشمى المكى، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، دمشق: ١٣٤٧هـ، ص ٢٤٤ .

(٢) تقى الدين الهاشمى المكى، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، ص ٢٤٤ .

وقد ضاعت مكتبة الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إسماعيل أحد الأئمة الأعلام حيث جمع من الكتب والأصول ما لم يكن عند أحد من علماء عصره[١].

ومن العلماء الذين أحرقت كتبهم أثناء غزو التتار لمدينة دمشق أحمد بن حجى المتوفى سنة ٨١٦ هجرية[٢] .

وفى مدينة حلب قام تيمورلنك أثناء غزوه للمدينة بتدمير ونهب الكثير من المكتبات ومنها المكتبة الصوفية فى الجامع الكبير[٣] وغيرها من المكتبات الأخرى .

وقد لجأ بعض العلماء إلى إخفاء مكتبته أثناء غزو تيمور لنك لمدينة حلب . فقد ذكرت بعض المصادر أن إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسى كان بمدينة حلب عندما هاجمها تيمور لنك فطلع بكتبه إلى القلعة فلما رحل تيمور عن البلد . ويقول إبراهيم الطرابلسى : صعدت حينئذ إلى القلعة فوجدت أكثر كتبى فأخذتها ورجعت[٤] .

وفى دراسة أجريت حول " مكتبات بغداد وموقف المغول منها " خلص الباحث إلى القول: بأن الغزو التترى كان أحد الأسباب القوية فى إضاعة الكثير من التراث العربى الإسلامى المخطوط إلا أنه علينا أن ندرك فى الوقت نفسه أنه فى زمن الحروب والغزوات تستغل أوقاتها وتصبح فرصة سانحة للسوقة من الغزاة بالإضافة إلى ضعاف النفوس واللصوص من نهب وسلب كل ما يقع تحت أيديهم من كتب وغيرها.

وبالرغم مما ذكر فى المصادر القديمة والحديثة من نصوص تؤكد قيام المغول بتدمير مكتبات بغداد إلا أن وجود بعض المكتبات التى كانت قبل الغزو التترى وتجاوزها العهد المغولى ينقض ذلك. ومن أمثال هذه المكتبات: مكتبة مشهد أبى حنيفة، ومكتبة المسجد الزيدى، ومكتبة المشهد الكاظمى، ومكتبة رضى الدين طاووس، ومكتبة غياث الدين طاووس، ومكتبة ابن العلقمى، ومكتبة المستنصرية، وغيرها من المكتبات.

ويعلل الدارس ذلك بالقول: أما المكتبات التى دمرت لعلها كانت قريبة من ميدان القتال [٥] .

---

(١) تقى الدين الهاشمى المكى، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، ص ٢٤٤ .

(٢) السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١: ٢٦٩ .

(٣) سامى الكيالى، " مخطوطات حلب "، القاهرة: مجلة معهد المخطوطات العربية، (نوفمبر ١٩٦٧م)، عدد ١٣، ص٢١٦ .

(٤) الشوكانى ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. بيروت : دار المعرفة ، د.ت ، ١ : ٢٨ - ٢٩.

(٥) محمد صالح محى الدين، " مكتبات بغداد وموقف المغول منها "، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. مجلة كلية العلوم الاجتماعية، (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، عدد ٥، ص ص ٨١ . ١١٢ .

ثانيًا- الحروب الصليبية والاستعمار الأوروبى:

لعب الاستعمار الأوروبى دوراً مشيناً أثناء غزوه للبلاد العربية الإسلامية التى تعرضت لكثير من الغزوات، حيث قام المستعمرون - بعد أن تمكنوا من الهيمنة على معظم البلاد العربية والإسلامية والسيطرة عليها لسنوات طويلة - بسرقة ونهب ذخائر التراث العربى الإسلامى، ومن ثم القيام بإلحاقه بمتاحفهم ومكتباتهم .

وليت الأمر توقف على السلب والنهب بل أدى الغزو الصليبى والاحتلال الاستعمارى إلى تدمير المكتبات ومحتوياتها من الكتب.

ومعظم الدول الأوروبية التى استعمرت البلاد العربية الإسلامية قامت بنهب التراث العربى الإسلامى المخطوط أثناء الغزو والاحتلال، ولا تخلو دولة من الدول الأوروبية اليوم من وجود مخطوطات عربية إسلامية فى مكتباتها العامة والخاصة، الحكومية منها وشبه الحكومية. ومن هذه المكتبات والمتاحف: متحف اللوفر، والمتحف البريطانى، ومكتبة برلين، ومكتبة غوته، والمكتبة الوطنية فى باريس، وغيرها.

ولم يقتصر دور الغزو الصليبى والاستعمارى للبلاد العربية والإسلامية على نهب التراث المخطوط وتشتيت شمله، بل قاموا بتدمير المكتبات وإحراق الكتب .

وعندما غزا الصليبيون القدس عام ٤٩٢ هجرى وطردوا الفاطميين منها وجدوا الكنيسة تحولت إلى دار علم فقاموا بهدمها بعد عامين من دخولهم القدس [١].

وفى مدينة طرابلس (من بلاد الشام) تعرضت مكتبة المدينة للحريق. وأوَّل من دون خبر إحراق مكتبة مدينة طرابلس - من قبل الغزو الصليبى - ابن القلانسى (المتوفى سنة ٥٥٥ هـ)، وكان دخول الصليبيين لمدينة طرابلس سنة ٥٠٣ هـ.

قال ابن القلانسى فى تاريخ سنة ٥٠٢هـ: «شدَّ الفرنج القتال على طرابلس وهجموها من الأبراج فملكوها بالسيف فى يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة من السنة ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وحصل فى أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها وما كان منها فى خزائن أربابها ما لا يحد عدده ولا يحصر فيذكر» [٢].

---

(١) يوسف العش، دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر فى العصر الوسيط، ص ١٥١ .

(٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق. بيروت. المطبعة الكاثوليكية، د. ت، ص ١٦٥ .

أما ابن الفرات (المتوفى سنة ٨٠٧ هـ)، فقد وصف حريق الصليبيين لمكتبة طرابلس بالقول: " كان لطرابلس دار علم لا نظير لها فى العالم. تحتوى على ثلاثة آلاف ألف كتاب فى العقائد وتفسير القرآن الشريف والحديث والآداب. وكان عدد المصاحف فيها يبلغ خمسين ألفاً والتفاسير عشرين ألفاً وكان قضاة بنى عمار يهتمون بنجاح هذه دار العلوم ويصرفون الرواتب السنوية على مئة من النساخ وكان بينهم ٣٠ ناسخاً لايبرحون الدار نهاراً ولا ليلاً. وكان لهم عملاء فى كل البلدان ليبتاعوا لهم أفضل ما يجدون من الكتب. وكانت طرابلس فى عهد بنى عمار أصبحت مدينة زاهرة حافلة بالعلوم يتقاطر إليها العلماء من كل البلدان. فلما وقعت المدينة سنة ٥٠٣ فى أيدى الفرنج يقودهم ريمون صنجيل دخل أحد كهنتهم دار العلم فتعجب من وفرة كتبها. وكان أول خزانة رآها خزانة المصاحف فأخذ الواحد منها فعرف أنه القرآن وهكذا استقرى بقية الكتب وإذا هى كلها مصاحف فأعلن الأمر لرفقته فاضرموا فيها النار وحولوا المكتبة رماداً ولم يبق منها إلا عدد قليل من التآليف تشتت شملها فى البلدان [١].

ولعل الرقم الذى ذكره ابن الفرات عن محتويات المكتبة مبالغ فيه. إلا أن معظم المصادر التاريخية أجمعت على أن هذه المكتبة كانت غنية بمحتوياتها من الكتب فى مختلف فنون المعرفة. وكانت نهايتها مفجعة على يد الصليبيين الذين قاموا بإحراقها ونهب ما تبقى منها.

وفى موضع آخر من تاريخه قال ابن الفرات [٢]: «قال الشيخ يحيى بن أبى حميد النجار الحلبى ، كان يوجد فى طرابلس دار علم ليس فى العالم ما يضارع كتبها كثرة ونفاسة وجمالاً . قال يحيى إن والده أخبره نقلاً عن شيخ من طرابلس قوله : لقد كنت مع فخر الملك ابن عمار حاكم طرابلس فى شيزر[٣] وعندما علم بسقوط طرابلس بيد الصليبيين سقط مغشياً عليه وعندما استعاد وعيه قال - والدموع تنهمر من عينيه - : والله لم أحزن على شىء أعظم من حزنى على دمار دار العلم» .

ومن بين الدول الصليبية الاستعمارية التى قامت بنهب الكثير من التراث العربى الإسلامى المخطوط وتدمير البعض الآخر منه:

---

(١) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ ابن الفرات؛ تحقيق حسن محمد الشماع. البصرة: جامعة البصرة، ١٣٨٦ . ١٣٨٩هـ ، أحداث عام ٥٠٣ هـ.

(٢) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، أحداث عام ٥٠٣هـ.

(٣) بلدة حصينة بالقرب من مدينة حماة، لجأ إليها فخر الملك عندما هاجم الصليبيون مدينة طرابلس، انظر: ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٤ .

(أ) أسبانيا :

فقد أدت الحروب التى دارت رحاها بين المسيحيين الأسبان والمسلمين فى بلاد الأندلس إلى ضياع الكثير من التراث العربى الإسلامى المخطوط.

تقول عائشة عبد الرحمن عن نكبة الكتب العربية الإسلامية وخزائنها فى بلاد الأندلس: إن الأسبان أحرقوا " خزائن الكتب العربية على عادة العصر، فلم يسلم مما جمعه أمراؤها وألفه علماؤها من ألوف الذخائر غير ما حمل إلى أوروبا، وبقية ضئيلة ظلت مختفية حتى هدأت العاصفة وارتوى التعصب الجامح، فكانت هذه البقية نواة لمكتبة الاسكوريال بمدريد، أشهر مكتبة بأسبانيا فى العصر الحديث" (١).

وعندما اجتاحت قوات الملك فردناند الثانى الأندلس فى عام ٦٣٤هجرية، قامت بتدمير المسجد الكبير بقرطبة، وكان من أكبر الجوامع وأعظمها، أنشأه الخليفة الأموى عبد الرحمن الداخل عام ١٧٠هـ، وكان يحتوى على مجموعة كبيرة من الكتب والمصاحف.

وقد كتب المقريزى حول هذه الواقعة قائلاً بأن من بين المصاحف التى أحرقت على يد القوات الأسبانية المصحف الذى كتبه ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضى الله عنه(٢).

وفى عام ٨٩٧هـ، سقطت مدينة غرناطة آخر معقل للمسلمين فى بلاد الأندلس، وفى أثناء ذلك قام المتطرفون الصليبيون الأسبان من جماعات التفتيش بإلقاء المخطوطات العربية الإسلامية فى النهر الذى تقع عليه المدينة، حتى ازرقّ لون مائه من كثرة أحبار هذه المخطوطات، ويتساءل المستشرقون الأسبان اليوم عما تكون عليه الدراسات الثقافية فى أسبانيا وغرب أوروبا، لو لم يقدم رجال محاكم التفتيش على هذه الجريمة الشنعاء (٣).

وفى سنة ٩٠٤هـ، أمر الكردينال فيمنيس (أوكيمنيس) بجمع جميع الكتب والآثار الإسلامية من جميع سكان غرناطة وأرباضها، ووضعها فى ميدان بباب الرملة - ويعد هذا الميدان من أعظم ساحات المدينة - واحتفل بإحراقها مدعياً كذباً وبهتاناً أن ذلك

---

(١) عائشة عبد الرحمن، تراثنا بين ماض وحاضر، ص ٣٨ .

(٢) المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ١: ٣٩٨ .

(٣) سيد أحمد على الناصرى ، " الوراقون والنساخون ودورهم فى الحضارة العربية الإسلامية "، الرياض : مجلة الدارة ، (رجب - رمضان ١٤٠٩هـ/فبراير - إبريل ١٩٨٩م)، عدد ٤، ص ١٨٤ .

من أعمال الإيمان. وقُدِّر عدد ما أحرق يومذاك بما لا يقل عن مائة ألف مخطوط عربى، وقد أقدم على ذلك عندما رأى اهتمام مواطنيه بالدراسات الإسلامية، ولأنها تحتوى على كتب تخالف الأناجيل [١] .

وعندما استولى الأسبان على المدينة أحرقوا فى يوم واحد نحو سبعين خزانة للكتب، فيها ما يزيد على مليون وخمسين ألف مجلد [٢].

وفى سنة ٩٠٧هـ، أصدر الملكان الكاثوليكيان فيلب وإيزابلا قراراً بأن على مسلمى غرناطة تسليم كل كتبهم الدينية المكتوبة بالعربية وبخاصة نسخ القرآن الكريم، حيث تم إحراقها [٣] .

وفى عام ٩١٧هـ، أصدرت الملكة خوانا قراراً بأن يقدم الموريسكيون إلى القضاة كل ما قد يكون فى حوزتهم من كتب عربية لفحصها على أن ترد كتب الفلسفة والطب والتاريخ وتحرق البقية [٤].

وفى عام ٩٣٢هـ، أصيبت تونس بنكبة الاستعمار الأسبانى الصليبى الحاقد، ففى عهد آخر ملوك الحفصيين محمد بن الحسن (المتوفى سنة ٩٣٢هـ)، أهين جامع الزيتونة الذى احتوى على المكتبة العبدلية ونهبت خزائن الكتب التى كانت به، وداستها الكفرة بالأرجل، وألقيت تصانيف الدين بالأزقة تدوسها حوافر الخيل والرجال، حتى قيل إن أروقة الطيبين كانت كلها مجلدات ملقاة تحت الأرجل، وضربت النواقيس وربطوا الخيل بالجامع الأعظم.

ويروى ابن أبى دينار أن الشوارع المحيطة بالمسجد كانت مفروشة بالكتب حتى إن المارة لم تستطع تجنب وطئها [٥].

وهكذا تم هلاك وتدمير معظم التراث العربى الإسلامى المخطوط على يد الأسبان سواء فى بلاد الأندلس أو المدن العربية الأخرى التى خضعت لهم.

---

(١) جرجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٣م، ٣ : ١٨ .

(٢) جرجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ٣ : ١١٩

(٣) عبد اللطيف جاسم كانو، "الأرقام فى المشرق عربية النجار وفى الغرب الأوربى سنسكريتية هندية الدثار ونظرة نقدية فاحصة فى كتاب " الأرقام العربية نبع الحضارة الإنسانية "؛ نقد قاسم السامرائى ، الرياض : عالم الكتب (الربيعان - الجمادات ١٤١٩هـ / يوليو ، أغسطس ، سبتمبر ، أكتوبر ١٩٩٨م)، ع٥، ٦، ص ص ٣٨٨ ـ ٤٣٣ .

(٤) خوليان ريبيرا، " المكتبات وهواة الكتب فى إسبانيا " ، مج ٥، ١ : ٧٥ .

(٥) ابن أبى دينار ، محمد بن أبى القاسم، المؤنس فى أخبار افريقية وتونس، ط٣. بيروت: دار المسيرة، ١٩٩٣م، ص١٩٧ .

(ب) فرنسا:

اهتم الفرنجة بالمخطوطات العربية الإسلامية منذ القرن العاشر الميلادى، وتمكنوا من الاستيلاء على الكثير من المخطوطات فى الطب والرياضيات والأدب واللغة وغيرها وخلال الحروب الصليبية بهرتهم المكتبات المنتشرة فى أكثر البلاد التى اجتاحوها فأحبوا أن ينقلوا هذا الفن لبلادهم، فاستولوا على الكثير من المجلدات التى سلمت من شرهم ونقلوها إلى بلادهم.

حتى لويس التاسع ملك فرنسا ٦٢٣-٦٦٩هـ (١٢٢٦-١٢٧٠م) لما عاد من الحرب نقل معه من دمياط مخطوطات عربية وقبطية زين بها خزائن قصره، واحتذى حذوه كثيرون من الأمراء الفرنسيين وأغنيائهم الذين رافقوا الملك فى زيارته للأماكن المقدسة [١].

وعن نهب فرنسا للتراث العربى الإسلامى المخطوط يقول محمود المقداد: (.... اتجه الفرنسيون إلى جمع أعداد من المخطوطات تتفاوت فى قيمتها وموضوعاتها، وأخذت تزداد مع مرور الزمان، وكان جمعها لا يقتصر على بلد من بلدان العرب والمسلمين، وإنما امتد ليشمل كل ما استطاعوا إليه سبيلاً، وكان الجامعون يرسلونها إلى بلادهم بشكل دفعات، وقد جندوا لهذا الغرض دبلوماسيين فى القناصل والسفارات المنتشرة فى العالم العربى والإسلامى، ورحالة وسواحاً، وتجاراً وجواسيس، ورهباناً ومبشرين ومستعربين، وكان منهم من يكّلف بمهمات تتعلق بهذا الموضوع من قبل أعلى المستويات فى الدولة.

وكانت أساليب الفرنسيين فى جمع المخطوطات واقتنائها والوصول إليها تتم بطريقة مشروعة أحياناً وغير مشروعة فى أحياناً أخرى ,وذلك بالشراء، والمقايضة بالسلع، والهدايا، والنهب، والسرقة، والنسخ، وغيرها من الطرق الممكنة فى ذلك الحين وكل حين[٢].

ومن المدن والمناطق العربية والإسلامية التى تعرضت مخطوطاتها للضياع والدمار أو النهب والسلب على أيد الفرنسيين:

---

(١) فيليب دى طرازى ، خزائن الكتب العربية فى الخافقين، ص٦٢ .

(٢) ريجيس بلاشير وجان سوفاجيه ، قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها - وجهة نظر الاستعراب الفرنسى ؛ ترجمة محمود المقداد. بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٤٠٩ه / ١٩٨٨م، المقدمة : ص ص١٠ - ١١ .

مدينة دمشق :

ففى عام ١٩٢٥م أقدم الفرنسيون على ضرب مدينة دمشق بالمدافع، مما تسبب فى حرق المدرسة الجوزية ومكتبتها العامرة ، فانهارت وصارت ركاماً[١].

وفى القاهرة :

يروى الجبرتى - أحد المؤرخين المعاصرين للحملة الفرنسية على مصر - تفاصيل القصف الفرنسى وانتهاك حرمة الجامع الأزهر بقوله : " وكان الوقت ليلاً ، ودخل الفرنجة المدينة على الأقدام وعلى ظهور الخيل وانتشروا فى الشوارع مدمرين كل ما يقابلهم من متاريس حتى وصلوا إلى الجامع الأزهر فدخلوه بخيولهم ، وانتشروا فى صحن المسجد وداخل المقصورات ونهبوا الأروقة وحطموا الشموع والمصابيح، واقتحموا غرف الدارسين ونهبوا ممتلكاتهم ، ومزقوا المصاحف والكتب وألقوها على الأرض ووطأوها بأقدامهم[٢] " .

وفى الجزائر:

تعرضت المخطوطات الجزائرية إلى التدمير أثناء الحملة الاستعمارية الفرنسية فى العديد من المدن من بينها مدينة قسطنطينية.

يقول مؤلف كتاب: " تاريخ العرب العام ":

"نحن الفرنسيين بعد احتلال مدينة قسنطينة أحرقنا مثل البرابرة الحقيقيين المخطوطات العربية الموجودة فى " المدينة " ويقول الفرد بتلر: عندما احتل الفرنسيون شمال إفريقيا عام ١٨٤٠م اتبعوا سياسة الأرض المحروقة فى طريقهم فأقدموا على حرق مكتبة قسنطينة المشهورة بكتبها ومكانتها العلمية عن بكرة أبيها [٣] .

إن صورة التدمير للمخطوطات لم تقتصر على مدينة بعينها بل شملت العديد من المدن سواء فى مدينة الجزائر، أو غيرها من المدن الجزائرية الأخرى. ففى الجزائر العاصمة قامت منظمة التحرير الفرنسية السرية بعد مدة من الزمن بحرق مكتبة

---

(١) أكرم حسن العلبى، خطط دمشق. دمشق : دار الطباع للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م ، ص ص٢٣٣ . ٢٣٤ .

(٢) أحمد أبو كف، " أنقذوا هذه الكنوز الإسلامية ". القاهرة: مجلة الأزهر، (جمادى الأولى ١٣٩٩هـ/إبريل ١٩٧٩م)، عدد ٤، ص ص ١٠٣٤-١٠٤٣ .

(٣) ألفرد بتلر ، فتح العرب لمصر؛ ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٥١هـ/١٩٣٣م، ص٣٧٠ .

جامعة الجزائر المحتوية أكثر من نصف مليون كتاب [١]. وإلى جانب أشكال التدمير المختلفة التى تعرضت لها المخطوطات الجزائرية فإن بعض المجموعات صودرت من قبل السلطات العسكرية الفرنسية مثلما حدث لمكتبة الأمير عبد القادر التى تقدر بـ ٥٠٠٠ مخطوط. وتعرضت كتب شيخ الحداد للمصير نفسه عندما أعلن الحرب المقدسة ضد الاستعمار الفرنسى [٢] .

كما تعرضت مكتبات المساجد وخزانات الزوايا والتكايا أكثر من غيرها للنهب والسرقة. وقد اتخذ هذا السطو أحياناً صبغة رسمية كما وقع لكتاب "العبر..." لابن خلدون الذى نقل إلى المكتبة الوطنية الأهلية فى باريس بأمر من الإمبراطور نابليون الثالث [٣].

ويقول أحد الباحثين: إن آخر حلقة من مسلسل النهب الذى تعرضت له المخطوطات الجزائرية يعود تاريخها إلى بداية الستينيات مباشرة بعد استقلال الجزائر، فقد ذكرت بعض المصادر أن مخطوطات مكتبة جامعة الجزائر لم تحرق أثناء تفجير المكتبة يوم ٧حزيران/يونيو ١٩٦٢م بل نقلت إلى فرنسا فى ٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٦١م إلا أن مكان وجودها لا يزال مجهولاً [٤].

(ج) إيطاليا:

وعن ضياع التراث العربى الإسلامى على يد المستعمر الإيطالى لليبيا يقول المستشرق الإيطالى "أو جينو جرافينى" الذى كان مرافقاً لقوات الاحتلال الإيطالية فى سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) : إنه كان يشاهد الجنود الإيطاليين يحملون الوثائق والمخطوطات العربية والسجلات فوق عربات ويلقونها فى البحر بأمر من السلطات العسكرية الإيطالية، وكانت هذه المخطوطات والوثائق من كثرتها تشبه الجبال فى تكدسها وعلوها وارتفاعها. ويروى أنه نجح بعد محاولات فى إقناع سلطات الاحتلال فى ضرورة التوقف عن هذا العمل وإعطائه الفرصة فى جمع الباقى والمحافظة عليه.[٥].

---

(١) محمد ماهر حمادة، المكتبات فى الإسلام. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٢٠٧ .

(٢) أعراب عبد الحميد ، " التراث الجزائرى المخطوط و الاستشراق الفرنسى " . الرياض : أحوال المعرفة ، (شوال ١٤٢٥ه/نوفمبر ٢٠٠٤م) ، العدد ٣٦ ، ص ص ٣٧ - ٣٨ .

(٣) محمد عبد القادر أحمد، دراسات فى التراث العربى، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٩م، ١٥٧ .

(٤) عبد الكريم الدجيلى ، " ملاحظات حول الخزائن المخطوطة فى تونس والجزائر والمغرب " . بغداد : المورد ، (١٩٧٤م) ، العدد الرابع ، ٣ : ٢٩٩ .

(٥) محمد عبد القادر أحمد، دراسات فى التراث العربى، ص ص ١٧٨ . ١٧٩ .

ولم يقتصر نهب التراث العربى الإسلامى المخطوط على أسبانيا وفرنسا، وإيطاليا، بل إن هناك الكثير من الدول الأوروبية قامت بالدور المشين نفسه فى تدمير التراث ونهبه كالإنجليز وغيرهم.

وقد لخص لنا محمد عيسى صالحيه فى كتابه: "تغريب التراث العربى بين الدبلوماسية والتجارة "[١] أساليب الدول الاستعمارية فى نهب التراث وسلبه خاصة فى اليمن وعدد الوسائل والطرق التى اتبعها الاستعمار لنهب التراث فى النقاط الآتية:

(١) جمع المعلومات عن المناطق التى توجد فيها الآثار، والمناطق التى يكثر فيها من يقتنون الكتب المخطوطة، فقد كان أحمد على مرزوق مثلاً يجمع المعلومات الآثارية من منطقة بيحان.

(٢) العمل على تجنيد بعض أبناء البلدان المرشحة لنهب أثارها فقد استطاع لندبرج[٢] أن يجند عناصر من مأرب وبيحان وحضرموت وعدن ولحج والشيخ عثمان وغيرها من المناطق، لاعتقاده أن أبناء البلد أقدر على العمل فى المنطقة من سواهم، وهو اعتقاد صحيح فى جملته، هذا بالإضافة إلى ترديده دوماً بأن الذى يعمل فى منطقة البدو لابد أن يعرف حيلهم.

(٣) إقامة صداقات مع شيوخ وسلاطين البلدان التى تحوى كنوزاً تراثية مما سهل عليهم سلوك الطرق الآمنة والحراسة مقابل تقديم مساعدات لهم. فالسلطان صالح بن عبد الله العولقى أرسل كتاب أمان له ووصف له طريق شقرة - وثينة ليسلكه وسيّر حراساً، ليرافقوا لندبرج إلى حدود سلطنته يتولون حمايته فى المنطقة، وكان الكونت يزود عملاءه بالسلاح اللازم لحماية وكلائه عند خروجهم لنهب التراث.

(٤) الاستفادة من الدلالين الذين يبيعون الكتب، خصوصاً فى مناطق ذمار وصنعاء وإب وجبلة، لاسيما فى مواسم القحط والجفاف، إذ إن الجفاف وانعدام الطعام يخلقان حالة من الاستعداد لدى مقتنى الكتب المخطوطة لبيعها، وتشير الوثائق رقم ٨، ٥٢، ٥٨ إلى نجاح عملاء الكونت فى الحصول على المخطوطات، بسبب القحط الذى أصاب البلاد، فى حين فشلوا فى شراء مخطوط واحد ونقل أية قطعة أثرية

---

(١) محمد عيسى صالحية تغريب التراث العربى بين الدبلوماسية والتجارة، ص ٢٩ .

(٢) كارل لندبرج : ولد بمدينة جوتمبرغ سنة ١٨٤٨م وكان والده تاجراً ، درس المرحلة الثانوية فى مدارس أستكهولم والتحق بجامعة أبسلا سنة ١٨٧٠م ثم انتقل إلى جامعة باريس وعين سكرتيراً مساعداً لمجلس الآثار فى استكهولم سنة ١٨٧٤م وعمل كمرشد سياحى للأمراء فى الشرق ١٨٧٧ - ١٨٨٤م وحصل على الدكتوراه سنة ١٨٨٣م. حصل على أكثر من ألفى مخطوط من البلاد العربية وخاصة اليمن بالإضافة إلى الكثير من الآثار .

من بلاد العوالق حين أخصبت البلاد فى بيجان فى حزيران سنة ١٨٩٩م.

(٥) الاستفادة من العلاقات المتردية بين القبائل فى سبيل الحصول على الآثار والمخطوطات فالشيخ عاتق يطلب المساعدة من لندبرج، لأن حملة حربية ستشن عليه فى بيحان، ويعد لندبرج بهدية ثمينة من آثار يشبم إن ساعده الكونت بالسلاح[١]. ويتمنى على لندبرج أن يسارع بإرسال مسدس له.

(٦) أحياناً كان عملاء لندبرج يستغفلون البسطاء فيقايضونهم كتباً مطبوعة أرسلها لهم الكونت لندبرج مقابل مخطوطات، وإعطاء مقتنى المخطوطات بعض النقود زيادة على الكتب المطبوعة.

(٧) اعتمد الكونت على بعض الهدايا والتحف تقدم لشيوخ وسلاطين المناطق التى يعمل بها العملاء، فقد أرسل بندقية ورصاصها لمحمد صالح جعفر نائب الوالى فى عدن، وناظوراً ومسدساً للسلطان صالح بن عبد الله العولقى، وهدايا أخرى لأحمد ابن عبد الله الفضلى [٢] .

ولم تقتصر المصائب التى حلت بالتراث العربى الإسلامى المخطوط على يد الاستعمار الأوروبى فى البلاد العربية والإسلامية فقط، بل إن التراث العربى الإسلامى المخطوط تعرض بعضه للحرق والإبادة فى البلاد الأوروبية نفسها؛ فقد ذكر أن الدوق يوجين دى سافوا استولى على سراييفو سنة ١٦٩٧م، إذ كانت تسمى بوسنه سراى، وقام بنهب قسم من مخطوطات المكتبة الوطنية، وأقدم على حرق الباقى، وما زال قسم من مخطوطاتها فى مكتبة فيينا. وعادت الكره ثانية فى الهجوم الصربى الشرس الأخير على البوسنة والهرسك، فأقدم الصرب على تدمير معهد الدراسات الشرقية فى سراييفو، وتسبب هذا الدمار فى ضياع تراث ضخم من المخطوطات والوثائق النادرة والكتب الثمينة. وتعد مكتبة المعهد أهم مكتبة للمخطوطات فى أوروبا الشرقية[٣].

ولحق الدمار ٦٥٠ مسجداً، يحتوى أكثرها على العديد من المكتبات بالإضافة إلى بناية تابعة لممتلكات الأوقاف، وعدداً كبيراً من المكتبات الإسلامية والقومية منها مكتبة الغازى خسروبك، ومدرسته الشهيرة فى العاصمة وكانت قد أنشئت عام ١٥٣٧م [٤] .

---

(١) وثيقة ٥٢ من الوثائق المحفوظة فى ملف رقم ٧٩ المحفوظ فى مكتبة جامعة أبسالا بالسويد .

(٢) محمد عيسى صالحية، تغريب التراث العربى بين الدبلوماسية والتجارة ، ص٢٩ وما بعدها.

(٣) " تدمير أهم مكتبة للمخطوطات فى أوربا الشرقية"، الرياض: مجلة الفيصل، (شعبان ١٤١٣هـ)، عدد ١٩٤، ص ١٤٤ .

(٤) خليل محمود العمادى، " المكتبات الإسلامية بين كيد الأعداء وجهل العامة " ، ص ص ٦١ ـ ٦٢ .

وعن أثر الغزو فى أوروبا على التراث العربى الإسلامى المخطوط يقول قاسم دوبراجا[١] : "ولا يفوتنا أن نذكر ههنا أن المكتبات كثيراً ما كانت عرضة للهلاك والنهب بسبب الحروب أو الحرائق، فقد عرفنا مثلاً أن كثيراً من المخطوطات قد تلف، وبعضها قد نهب زمن حرب فيينا (من سنة ١٦٨٣ إلى سنة ١٦٩٩م)، وذلك حين أغار القائد النمساوى البرنس أوجن الساوويى على بوسنة، وأحرق مدنها سنة ١٦٩٧م [٢].

وهكذا أدت الحروب الصليبية والاستعمار الأوروبى البغيض للبلاد العربية والإسلامية إلى ضياع الكثير الكثير من التراث العربى الإسلامى المخطوط.

(١) أمين مكتبة الغازى خسرو بك .

(٢) الغازى خسرو بك، مقدمة فهرس المخطوطات العربية والتركية والفارسية ، (سراييفو: ١٩٦٣م)، ١ : ١٠.

النتائج والتوصيات

(أ) النتائج:

تظهر هذه الدراسة الأسباب البشرية التى أدت إلى ضياع الكثير من تراثنا العربى الإسلامى المخطوط والتى من أبرزها :

١) مساهمة بعض العلماء فى ضياع الكثير من المخطوطات عن طريق حرقها أو تمزيقها أو دفنها أو غسلها إلى غير ذلك من الوسائل الأخرى.

٢) الخلافات المذهبية أدت إلى ضياع الكثير من التراث العربى الإسلامى خصوصاً فى بلاد الشام والعراق ومصر .

٣) كثرة الصراعات السياسية على الحكم داخل الدولة الإسلامية أدى إلى فوضى إدارية وحالة اقتصادية متردية فى بعض الأحيان نتج عنها إحراق الكثير من المكتبات .

٤) الإهمال والتقصير من جانب العاملين فى المكتبات ساهم فى سرقة المخطوطات، بالإضافة إلى خيانة بعض أمناء المكتبات.

٥) غزو التتار لعاصمة الخلافة العباسية بغداد وبلاد الشام أدى إلى ضياع الكثير من التراث العربى الإسلامى المخطوط .

٦) ضياع و دمار الكثير من التراث العربى الإسلامى المخطوط، ونهب وسلب الكتب والمكتبات على يد الدول الأوروبية الاستعمارية التى هيمنت على معظم البلاد العربية.

(ب) التوصيات:

١- القيام بتصوير جميع المخطوطات على وسائط حديثة تتناسب مع أجهزة التقنية الحديثة.

٢ - إعداد أكثر من نسخة مصورة من المخطوط الأصلى واحدة لخدمة الباحثين، وأخرى لاستعمالها أثناء التصوير، والثالثة يتم وضعها فى مكان آمن .

٣ - ضرورة سن القوانين لمنع خروج المخطوطات من أماكنها والاتجار بها ونقلها من بلد إلى آخر.

٤ - إرشاد العاملين فى مجال الفهرسة والتحقيق والترميم والتجليد إلى كيفية التعامل مع المخطوطات وسبل المحافظة عليها.

٥ - ضرورة سعى الحكومات العربية والإسلامية إلى استرداد ما تم سلبه ونهبه من مخطوطات من قبل الدول الاستعمارية.

٦ - السعى لقيام تعاون بين الدول العربية وتركيا فى مجال التراث لتمكين الباحثين من الاطلاع على الكنوز المخزنة فى المكتبات التركية، وتيسير الإجراءات التى تمكن الباحثين من الحصول على صور للمخطوطات التى يرغبون فى تحقيقها ونشرها.